معتز
عرفان

اللذة
الغامضة
للاشيء

دار عرفان للنشر

اللذة الغامضة للاشيء

معتز عرفان

دار عرفان للنشر

اللذة الغامضة للاشيء

فكرة الكتاب

دراسة موجزة تجمع بين الوجودية والأنثربولوجيا والسايكولوجيا، وتناقش الوجود البشري، والتجربة الاجتماعية، والانعزالية، وغيرها من الموضوعات المرتبطة بالإنسان، والمؤثرة علي كيانه.

يشعر الإنسان بأنه ليس في موطنه، ويباغته حنين هائل إلي الفردوس المفقود بين الحين، والآخر، وتشمله الكثير من المشاعر الفياضة تجاه الموقف، وتراوده العديد من الأفكار الوجودية لتدمجه مع بيئة متأصلة من الصراعات، والاضطرابات. يبحث الكيان البشري عن اللذة، ويسعي جاهدا لإدراكها مستعينا بكل الوسائل الممكنة، وراغبا في بلوغ الاستقرار، وإدراك الطمأنينة، والوصول إلي بيئة الأمن والأمان، لكنه مُرغم علي الاندماج مع الصراع الوجودي الذي لا مناص منه، ومُجبر علي مقاومة العبث، والعمل علي خلق المعني، وإضفاء القيمة علي تجربته الوجودية الخاصة. وفي منتصف الطريق، يتساءل عن معني وجوده، ويتحقق من لذات الحياة المختلفة ساعيا نحو فهمها، وإدراك معانيها، وفي نفس الوقت نجده منغمسا في حالة من التساؤل الدائم عن هذه اللذات، وعن غموضها العجيب، ومكمنها الخفي، وهدفها المستتر. يتساءل .. من أين تنبثق هذه اللذات؟ وأين تكمن نهايتها؟ وهل تنحصر في الملذات الحسية، والمتع الذهنية؟ أم تمتد لتشمل الروح، ولتتجاوز الجسد؟ وهل من الممكن للكيان البشري أن يتجاوزها حقا؟ وهل من الممكن له أن يبلغ النرفانا؟ وهل تندرج تحت بند الحقائق؟ أم تنبع من الأوهام، وتؤدي إلي الخيالات؟ .. تلاعب هذه الأسئلة الكيان الإنساني بشكل دائم، ولا تعيقه من التحرك، والتفاعل لكنها تراوده علي فترات متقطعة؛ لتملأه

بحالة عميقة من الإحساسات الوجودية، والتأملات الفلسفية الهادفة نحو إدراك المعني الشامل للتجربة البشرية الفردية، والجمعية علي السواء. تختلف درجات الوعي بين البشر، وتتنوع وفقا للبيئة، والتعليم، وطريقة التربية، ومدي الاهتمام بالثقافة، وحجم التفاعل مع التجربة الإنسانية الشاملة. وكنتيجة لذلك، من الممكن لنا بسهولة أن نلمس الكثير من الاختلافات، والتدرجات المهيمنة علي الوعي البشري بين الأفراد، وبعضهم البعض. وهو ما يؤدي بدوره إلي حالة من التباين الملحوظ المرتبط بدرجة التفاعل مع الصراع الوجودي، والتوتر الإنساني، والأزمة الوجودية بشكل عام. تنتج حالة التوتر البشري من تباين المعطيات الإنسانية مع الحقائق، والماورائيات، وترتبط ببيئة التمايز المهيمنة علي الوجود الإنساني، وتمثل بيئة الوعي مصدرا رئيسيا لانخراط الكيان الإنساني في الكثير من التأملات، والتدبرات الهادفة نحو كشف أسرار الوجود البشري، والتعرف علي خفاياه. يشعر العقل البشري بوجوده في مأزق ما، ويتحسس الكثير من المشاكل، والصراعات المهيمنة علي منظومته، ويشرع في تفعيل عملية الإدراك الشامل كوسيلة للتعامل مع البيئة المحيطة، والتكيف مع أبعادها. ولا يستطيع العودة إلي حالة الانسجام مع الطبيعة ما قبل الإنسانية، والتعقيدات البشرية، ولا يعرف نهاية الطريق إذا تقدم إلي الأمام مما يؤدي إلي خلق حالة من التناقض

الوجودي عند الإنسان، والتي تؤدي بدورها إلي حالة من الخلل، وفقدان التوازن. يؤدي هذا الخلل إلي التمييز بين الإنسان، والحيوان، حيث تخبرنا الدراسة المباشرة للنشاط الحيواني عن حقيقة امتلاكه لدرجات عالية من الانسجام مع الطبيعة بشكل واضح، وظاهر، وهو ما يمثل النقيض بالنسبة للكيان الإنساني المنخرط في حالة دائمة من البحث عن الانسجام، والتكيف. ينظر الإنسان إلي الوجود علي أنه مشكلة لا مفر منها، ويشرع في البحث عن الحلول اللازمة للتخلص من عواقبها، ويصمم علي المضي إلي الأمام مهما كلفه الأمر، ومهما احتاجت التجربة ساعيا نحو بلوغ الاستقرار المرغوب. وتمثل عملية التكيف مع البيئة الخارجية أمرا إلزاميا، وهاما بالنسبة للوجود البشري، حيث يعمل الإنسان علي تحقيق التوازن عبر التوافق مع المجتمع المحيط به، والممثل لوجوده. ومن هنا، يتسلل الكائن البشري بين متاهات المجتمع المتشعبة ساعيا نحو التعرف عليها، والإلمام بخفاياها؛ ليخلق لنفسه دربا متناغما من دروب الحياة المتعددة. من الطبيعي لحالات التوازن أن تباغتها ضربات الخلل بين الحين، والآخر، ومع كل خلل جديد، ينخرط الإنسان في حالة من البحث عن التوازن، والاستقرار، والتكيف، وهو ما يمثل الحراك الإنساني بشكل عام. علي الكيان البشري أن يعمل علي حل مشاكله، وتحمل مسئولياته، وقد يؤدي التجاهل إلي خلق المزيد من

الصراعات، ومضاعفة عواقب المشكلات، حيث يشعر الفرد وقتها بالفقدان، والضياع، والتشتت، ويباغته الإحساس بالدونية، وعدم جدواه. يصبو الإنسان إلي الدين كوسيلة لإيجاد حل روحي للقلق الوجودي، ويعمد إلي الروحانية كطريقة لتهدئة مخاوفه، وصراعاته المرتبطة بالأزمة الوجودية المتأصلة، حيث يعتمد الكيان الديني علي الاهتمام بالعالم الآخر بشكل أوسع مقارنة بالعالم السفلي، والدنيوي، مما يؤدي إلي حالة من التخفيف، والتهدئة علي المدى البعيد. بالطبع، يمس التوتر الوجودي إنسانيتنا، ويعمل علي تحفيز العقل البشري بشكل دائم، وفعال ليجبره علي التفاعل مع البيئة المحيطة به، والمسيطرة علي منظومته، وقد تباغته أحيانا نوبات من الهروب حرصا علي تجنب المشكلات، والأزمات. ولا يمتلك الكائن البشري برنامجا موروثا فيما يخص التعامل مع المثيرات المختلفة، والوصول إلي القرار السليم، والسديد؛ مما يجعله الكائن الأعجز من الناحية البيولوجية مقارنةً بباقي الحيوانات، والكائنات الحية. وتؤدي به هذه الحالة إلي الانخراط في بيئة تفاعلية من التعلم، والتأهب بشكل دائم، ومستمر. وفي نفس الوقت، تعمل منظومة العقل البشري ضمن إطار مبني علي التعامل مع الأزمات، والعمل علي حلها، وتتدرج هذه الصعوبات لتبدأ بالمشكلات التافهة مارةً بالأزمات المتوسطة، ومنتهيةً بالصراعات الكبرى. وهو ما يمثل الأبعاد المختلفة

للوجود البشري بطبيعة الحال. وبصورة مؤكدة، يحتاج الإنسان إلي خريطة للعالم الاجتماعي، والطبيعي؛ لأنه يشعر بحالة من الضياع، والفقدان بدونها، ويبدو مشوشا إذا تحرك بعيدا عنها؛ لأنها تساعده بشكل مباشر في التكيف مع البيئة المحيطة، والتمكن من الاستخدام الفعال لآليات النجاة، والتفاعل الإنساني. كما تعمل علي إرضاء فضوله، وتحقيق كينونته الممثلة لكل شيء بالنسبة إليه. تمثل فكرة الإخلاص الكلي أمرا هاما بالنسبة للكيان الإنساني، حيث يحتاج الإنسان بطبيعته إلي موضوع يخلص له، ويوجه نفسه تجاهه، ويحرك دوافعه، ورغباته ناحيته، وهو ما يعمل علي دمج طاقاته، وتحريكها في مسار واضح، وفعال. وقد يعجز الإنسان عن إدراك الكثير من أهدافه، وقد يصيبه العديد من الخيبات، والحسرات، وقد تراوده التوقعات بارتفاعاتها المعهودة لتفاجئه بصرامة الواقع، وصعوبة التعامل معه لكنه في كل مرة يسعي من جديد، ومع كل مأزق يصمم علي التجاوز، والمضي للأمام. من الممكن أن تسيطر علي الإنسان حالة من العزلة كنتيجة لعدم قدرته علي التعامل مع المجتمع، والبيئة المحيطة. ومن الممكن للصدع، والقلق الوجوديين فيه أن يصلا إلي درجة كبيرة من عدم الاحتمال إذا لم يتمكن العقل البشري من إنشاء معني للوحدة في داخله، وإذا لم يسمح لنفسه بتحقيق التوازن بين بيئته الداخلية، وعالمه الخارجي. وقد يؤدي الخلل في هذه الحالة إلي محاولة

الإنسان تخدير نفسه باستجلاب أحوال الغيبوبة، والنسيان باستخدامه للكثير من الوسائل المختلفة المتمثلة في المخدرات، والعربدة الجنسية، والرقص، والصوم، وغيرها من أدوات التخدير المتاحة، والمتعددة. لكن هذه المحاولات (العربدة، والمخدرات) فاشلة علي المدى البعيد، ومؤقتة ضمن الإطار الواقعي، والحياتي. كما تمثل بيئة من التوافق الحسي، والخيال الفكري البعيدين عن الواقع، ومجرياته المتعددة. لا يمتلك الإنسان تصورا واضحا لحالة الاستقرار التي يسعي نحوها، ولا يعرف طرقا جلية للوصول إليها، وتمثل أمرا محوريا بالنسبة إليه بالرغم من عدم قدرته علي فهم أبعادها. وهو ما يخلق حالة من التخبط، والاضطراب علي المدى البعيد. ومن الممكن للكائن البشري أن يُغمر بسهولة في حالة من الإحساس بالعزلة، والغرابة، والانفصال، وهو ما يتصل بوعيه المتطور، وحساسيته العالية، والتي تمكنه من تحسس مفردات البيئة المختلفة، والإحساس بعدم انسجامه معها. وفي محاولته لتجاوز تفاهة وبساطة حياته، يندفع الإنسان نحو المغامرة، ويتطلع إلي ما وراء الحد الفاصل لوجوده، ويحاول أن يتجاوزه بكل صورة ممكنة، وعبر كل طريقة متاحة. وهو ما يؤدي بشكل مباشر إلي صبغ الفضائل العظمي، والرذائل الكبرى بصبغة الحماسة، والإثارة، وتتعرض نزعتا الإبداع، والتدمير لنفس الأمر بصورة حتمية. يعمد الكيان الإنساني إلي التجربة الاجتماعية بشكل

رئيسي؛ حيث تمثل تفاعلاته مع الآخرين محاولة فعالة لإثبات نفسه، والإحساس بقيمته، والتجاوب مع مشاعر الحب، ولوازم التكيف.

يعيش الكائن البشري في مجتمع يوفر له الكثير من النماذج الجاهزة، والمُعدة، والتي تزعم القدرة غير العادية علي خلق المعني، وإضفاء القيمة، وتحقيق الكثير من الإرضاءات، واللذات التي يسعي دائما نحوها.

وبالرغم من تحركه بين ثنايا التجربة الاجتماعية، وتكيفه معها إلا إنه قد يجد كيانه راغبا في الانفراد بنفسه، والعودة إلي وحدته، والاستكانة إلي أحضان كينونته، وهو ما يمثل أمرا شائعا بالنسبة للكيان البشري بوجه عام. من السهل للعقل البشري أن يتأثر بالأهواء، والرغبات اللحظية، والمؤقتة مما يؤدي إلي المزيد من التوتر الوجودي حينما يُكشف الستار عن تبعات، وعواقب تصرفاته الطائشة، واختياراته العشوائية، والتي ترتبط باللحظة بشكل مباشر. وقد تمثل العشوائية ملجأ بالنسبة للإنسان حينما يعجز عن إدراك أهدافه، وعندما تطول الفترة الزمنية اللازمة لبلوغها، ليجد نفسه منخرطا في بيئة مفعمة بالضبابية، واهتزاز الصورة. لكن التجربة الإنسانية تعلمنا أمرا هاما فيما يخص هذا الشأن، ويتمثل هذا الأمر في حقيقة أن الحياة لا تسمح للإنسان بالعبث لفترة مطولة، وأنها سريعاً ما تجبره علي تحمل تبعات تصرفاته، ودفع ثمن أخطائه، وهو ما يمثل واقعا صارما بالنسبة للكيان البشري بشكل عام. فمن الممكن

للمسات بسيطة في حياة الإنسان أن تؤثر علي مساره بشكل جذري واضح، ومن الممكن لأخطاء عبثية أن تطيح باستقراره، وتنقله لبيئة مفعمة بالصراعات المتأججة، والتوترات الدائمة، وهو ما يدخل العقل البشري في حالة من التساؤل المستمر عن معني الحياة، وحقيقة لذاتها، وقيمتها الفعلية، والواقعية. يشعر الكائن البشري بالقيمة حينما يقدم شيئا ما، وترتفع معنوياته عندما يحصد ثمرات أعماله، ويجني لذات أفعاله لكنه متخبط في نفس الوقت، حيث يراوده الكثير من اللحظات المفعمة بالتساؤل عن أهمية حراكه، وحقيقة اللذات المرتبطة به، وماهية الصراع الإنساني المُرغم علي الانخراط فيه، والتكيف مع أبعاده. يمثل الإنسان مشروع الوجود الذي يتصوره، ووجوده هو مجموع ما تمكن من تحقيقه، وتخلق هذه البيئة كيانه الذي يستمده من أفعاله، وتمهد له الطريق تجاه بناء كينونته، وخلق معني لوجوده. ويلتزم في حياته، ويرسم عبر هذا الالتزام صورة ما سيكون عليه وجوده، ويضع كل أبعاد الوجود داخل هذه الصورة، وقد يلاعبه عقله بما يكمن خارجها، وقد يربطه بمفرداتها مكتفيا بكل ما فيها، ومتكيفا مع كل ما يكمن بداخلها. وبالرغم من ذلك، لا يمكننا أن نختزل الإنسان في مجموعة مشاريع، وأفعال؛ لأنه ببساطة يستمد كينونته من صفاته الإنسانية، وبنيته البشرية، والتي تكفيه للإحساس بوجوده، والتكيف مع البيئة المحيطة به، إذا سعي بصورة

فعالة نحو التوافق مع الآليات اللازمة لذلك. ولقد وددت دائما لو انكشفت لي حقيقة استمرار النشاط الإنساني بالرغم من علم الكيان القائم به بحتمية الانقطاع، وإدراكه لطبيعة التلاشي المهيمنة عليه في نهاية المطاف. ولقد راودتني باستمرار الكثير من التساؤلات المرتبطة بالكيان البشري المعتمد علي الاندفاع المستمر، والتحرك الدائم عبر مسارات الرحلة البشرية دون الالتفات إلي حقيقتها أو القدرة علي إدراك ماهيتها الخفية، والمستترة. بالطبع، يمثل الحراك البشري أمرا ضروريا بالنسبة للإنسان، ويعمل الكيان الإنساني علي إدراك ذاته عبره، ويصل إلي أعماق نفسه من خلاله، وبه يصنع كينونته، وبواسطته يبني أبعاد وجوده.

وعندما يتخلي عنه يفاجئه اليأس، والاكتئاب، وعندما يدنو منه ينتعش، ويبتهج من جديد، وهو في نهاية الأمر الطريق النابض، والواضح للتعبير عن الكيان البشري بشكل عام. وبصورة عميقة، يلاعب المستقبل الإنسان عبر غموضه المزمن، ويملأه بالكثير من التوقعات، والأحلام، ويفاجئه بمجرياته الطارئة، ويخلق له حالة من الفزع الوجودي علي المدى البعيد، وحينها يجد الكيان الإنساني نفسه واقفا علي جرف مخيف، فيهاب السقوط من عليه، ولا يتوقف الأمر عند هذه النقطة فحسب لكنه يمتد ليشمل الفزع من إمكانية إلقاء نفسه. وضمن إطار أعمق، يجد العقل البشري نفسه مرغما علي مجابهة أشكال الرعب، والانفصال، والعزلة،

ويعمد إلي إيجاد أشكال جديدة من وصل نفسه بالعالم؛ ليعمل علي إدراك الاستقرار الوجودي في أفضل صورة ممكنة. ومن الضروري أن أوضح ماهية النشاط البشري، وحقيقة عدم ارتباطه بسياق الخير علي الدوام، وإمكانية اتصاله بسياق الشر حينما يرغب في ذلك، وهو ما يمثل النفس البشرية بازدواجيتها المرهقة. وقد ينخرط العقل البشري في حالة من الإرضاء السادي عبر السيطرة علي عقول الآخرين، وقد يسيطر عليه الآخرون ضمن بيئة مازوخية واضحة، ومن الممكن أن يتفاعل ضمن إطار مبني علي الهروب من الواقع، ومعتمد علي التلاعب بمجرياته، ومحاولة الانتصار علي عقباته دون جهد يُبذل، وهو ما يتطلب بدوره درجات عالية من الفساد، وضياع القيم، والمبادئ. وقد يشمل موضوع الإخلاص البشري الحماسة العمياء لتصبغ الخير، والشر بنفس الصبغة، ولتفقدهما الفروق الواضحة بينهما، مما يؤدي بدوره إلي فعل كل شيء، وتبرير كل فعل، وتحقيق كل منال خاصةً إذا توفرت الإمكانيات، والموارد للكيان البشري القائم بذلك. فمن الممكن للغموض المهيمن علي مستقبل الفرد أن يتلاعب بأفكاره، ومن الممكن لمساره أن ينحرف بكل سهولة ويسر، ويتخلص من النزعة البنائية المرتبطة بالخير، ويعمد إلي النزعة التدميرية الآثمة، وهو ما نشهده في الكثير من الكيانات البشرية بعقلياتها المتنوعة. وبالرغم من ذلك، وعبر نظرة مجردة، يبقي النشاط الإنساني

بدرجاته المختلفة، وتفاصيله المتعددة، وأهدافه المتشعبة لغزا لا يمكننا فك شفراته، ولوحة لا يمكننا فهمها أو التعرف علي أصول مدرستها التابعة لها. وبصورة واضحة، يعمد الإنسان إلي الخبرات السابقة، والتجارب الإنسانية المتعددة كوسيلة للتعامل مع غموض المستقبل، وكطريقة لإدراك الاطمئنان، والاستقرار لكنه في نفس الوقت كثيرا ما يجد نفسه وحيدا، ومرغما علي الصمود، والتعامل مع المشكلات، وهو ما يمثل تحديا كبيرا بالنسبة إليه بشكل مباشر. يعمل الغموض علي تحفيز الدوافع، وتعمل الدوافع ضمن منظومة الأهداف التي تختلف بين البشر، وبعضهم البعض لكنهم لا يتوقفون مع أنفسهم إلا قليلا ليتحققوا من ماهية هذه الأهداف، وحقيقتها، وحجم الاستفادة منها علي المستوي النفسي، والجسدي، والمعنوي. فهل تكمن السعادة في الرحلة؟ أم تتصل ببلوغ الهدف؟ وهل يمثل الهروب حلا لبلوغ راحة البال؟ أم تسكن أبعاده بيئة من الوهم، والسكون المؤقت؟ وهل من الممكن للكيان البشري أن يبلغ غايته يوما ما؟ وهل يمتلك تصورا واضحا لحالته حينها؟ .. أسئلة كثيرة تباغت الكيان الإنساني حينما يصفو إلي نفسه، وعندما يختلي بذاته، ويتأمل رحلته الطويلة في نظره، والقصيرة بالنسبة لعمر الكون المحيط به، والشامل لتجربته. الإنسان موجود في اللحظة الحاضرة، خارج الحتمية الطبيعية، ويعتمد بشكل مباشر عليها، ويتعلق بها، ويرتبط

بأبعادها، ولا يمكننا أن نخرجه منها، ولا يُتاح لنا أن نعيده إلي الوراء أو ندفعه للأمام، وتمثل هذه الحقيقة التحدي الأكبر بالنسبة للكيان الإنساني؛ لأنها تدخله في حالة من الصراع، والتأرجح بين الاهتمام باللحظة، وخوض تفاصيلها بتعمق من جهة، والحرص علي المستقبل، والتمهيد له من جهة أخري، لكنه لا يتخلص من هذه الحالة في حقيقة الأمر لتسيطر عليه في النهاية بشكل دائم ومستمر. ومن الممكن لنا أن نعثر علي الطبيعة الوجودية الفردية في موقف ما، وحينها نستخدمه للتعبير عن كيان الفرد، ومنظومته الفكرية الُمعتمدة من قبله. وفي هذه الحالة، لا ننظر للكيان الفردي علي أنه البيئة أو العوامل الحتمية الموضوعية المرتبطة بها، لكننا ننظر إليه علي أنه موقف دون مبالغة أو إنقاص. وكنتيجة لذلك، نجد أمامنا شكلا جديدا من أشكال الطبيعة الإنسانية، ونمطا وليدا من أنماط التجربة الوجودية مما يؤدي بنا إلي عدم القدرة علي إدراك التفاصيل الكاملة لهذا الكيان، وغياب القوة اللازمة لذلك. فالطبيعة الإنسانية، في أيامنا هذه، تحددها الأنظمة المعقدة، والبنية المجتمعية الشاملة، والطبقات الاجتماعية المتعددة، والنزاعات الكثيرة القائمة بين أجناس البشر بمستوياتهم المختلفة. فهل من الممكن لنا أن ندرك حقيقة الكيان الإنساني عبر موقف واحد حقاً؟ .. يبلغ الكيان الإنساني درجة من التعقيد يصعب إدراكها، ولا يمتلك الفرد نفسه القدرة علي فهم ذاته بالشكل الكامل

نظرا لطبيعة الخلقة البشرية نفسها، وعدم توافر الوقت أو القدرة اللازمة لذلك، وهو ما يخلق كائنا منخرطا في ممارسة الأنشطة البشرية دون امتلاكه لأدوات التحليل اللازمة، والمطلوبة، والتي قد تعجز عن الإدراك الشامل إذا توفرت ضمن الإطار الافتراضي أيضاً. ورجوعاً إلي عملية الانقطاع .. يمثل الموت أكبر صورها، وأكثرها وضوحا، وتأثيرا، وهو المعبر الصريح عن مغادرة الروح للجسد، والممثل الواضح لأكبر مصائب الكيان الإنساني، والمهدد الدائم له، والكامن المتأصل في عقله اللاواعي، والمباغت لوعيه بين الحين، والآخر. وبالرغم من ذلك، من الممكن لنا بكل سهولة أن نشهد حالات واضحة من النزعة التدميرية الذاتية، والتي غالبا ما تصاحب المرضي النفسيين، والمنخرطين في حالات الاكتئاب، والسوداوية المفرطة. وتنجم هذه النزعة عن الذات البشرية نفسها، حيث تسعي عبرها إلي إدراك الخلاص، والهروب من الصراع، وهو ما يعبر بشكل صريح عن عدم قدرة الذات علي المزيد من التحمل، وافتقادها لآليات النجاة أو التفاعل اللازمة للتوافق مع الكيان الوجودي بشكل عام. وهو ما يخالف العقل البشري النمطي، والمرتبط بالبيئة الصحية السليمة حيث يهاب الكيان الفردي الانقطاع المفاجئ، ويمثل الموت أكبر مخاوفه، ويعمل باستمرار علي تجنب الخيالات المرتبطة به، والمعبرة عنه، وهو ما يمثل الإطار الطبيعي للسلوك البشري التقليدي. ومن الممكن

للإنسان أن ينخرط في حالة من الخوف الدائم من المستقبل، ومن الممكن للكرونوفوبيا أن تشمله بأبعادها المختلفة، وتحيطه باضطراباتها المتعددة ليهاب حينها مرور الوقت دون تغيير حياتي جذري، وملحوظ. تكمن أزمة الإنسان الكبرى في اعتقاده بأهميته، وتأثيره في مجريات الأمور، وإنكاره للحقيقة المتمثلة في عدم افتقاد الكون له إذا غادره أو رحل عنه، وأن شأنه في مثل هذا العالم شأن الفراشات أو الكائنات البسيطة بشكل عام، وموته بالنسبة للإله لا يختلف عن سقوط بعض وريقات الأشجار في إحدى ليالي الخريف المظلمة. بالطبع، يرتبط الأمر بالمنظور الضيق للكائن البشري، والذي يشعر بكينونته، ووجوده، وفي نفس الوقت يعجز عن إدراك الرؤية الشاملة لعدم امتلاكه للوازمها، والمفردات التي تحتاجها، ويبقي الحجم الضئيل للكائن البشري عائقا كبيرا بالنسبة إليه بشكل دائم، ومستمر. ولا تعني كلماتي عجز الكائن الكامل أو عدم قدرته علي التفاعل حيث أنه من الممكن للإنسان أن يقدم العديد من الإنجازات، ويعرض الكثير من الإيجابيات، وهو ما تثبته وتؤكده التجربة الإنسانية لكنه في نفس الوقت عاجز عن إدراك السرمدية أو الكمال. ومن هنا، يلعب الإرث البشري دورا فعالا في تناقل الخبرات الإنسانية، والتجارب البشرية معتمدا علي فكرة التراكم، والتي تسمح بتحصيل النتائج الإيجابية، وتجميع القدرات البشرية نحو مسار متطور، وإيجابي.

تعمل المجتمعات علي إطلاق الكثير من الحملات الهادفة لدعم الفرد، وحثه علي التطوير من نفسه، وتحقيق ذاته، والعمل علي بناء مستقبله. ويكمن التساؤل الهام في حقيقة هذه الحملات، ومدي تأثيرها، وحجم نتائجها؛ لأن الأمور لا تسير بهذه البساطة، وقد تبدو الكلمات سهلة في كتابتها أو لفظها لكنها صعبة حينما تشرع في التحول إلي واقع ملموس. وضمن إطار مفعم بالإلحاح والمثابرة، يعمل الإنسان علي خلق معني لحياته، وقد تختلف الطرق المؤدية إلي ذلك لكنها تتفق في غايتها النهائية المتمثلة في الإحساس بالنفس، والقدرة علي الإنجاز، وطمأنة الذات بالوجود، والتفاني، وإمكانية العطاء. وإذا تأملنا "تجربة الغثيان"، لأدركنا فكرتها البسيطة التي تؤكد علي حقيقة زوال كل شيء، وتمكن الفناء من الإنسان مما يدفعه إلي شعور أشبه بما يصاحب الشعور المصاحب للغثيان. وتمثل هذه الحالة مصدرا للاضطراب الإنساني، والتوتر الوجودي بين الحين، والآخر. وكنتيجة لذلك، يعمد الإنسان إلي التجاهل كوسيلة للهروب من التفاعلية الزائدة مع الصراع الوجودي، ويعمل علي إلهاء نفسه بالانهماك في ممارسة الأنشطة البشرية المختلفة، والتي يتوجها العمل بشكل رئيسي. ومن الممكن للكيان البشري أن ينخرط في عملية دائمة من خلق القيم، ومن الممكن له أن يخلص لعمله أو لأسرته أو لنشاط خيري علي سبيل المثال. وربما يرتفع بالنغمة؛ لينخرط في المزيد من الأنشطة

المرتبطة بالتضحية، والتفاني دون انتظار مقابل. ومهما اختلفت تحركات البشر، وتعددت أساليبهم الهادفة للوصول إلي غاياتهم، يبقي الحراك الإنساني عاجزا عن الإنجاز الكامل، ويظل ملتفا بغطاء المستقبل المفعم بالغموض، والتوتر. يري فرويد أن صدمة الإنسان الأولي تتمثل في كونه وُلد. فبعد الأمان الذي شمله داخل رحم أمه، ها هو يخرج إلي العالم الخارجي المحفوف بالمخاطر، والصراعات. وهو ما يخلق عنده حالة من الرغبة في العودة إلي الوراء، ويبني بينه وبين أمه رابطا كبيرا بطبيعة الحال. يصنف الرجل هذه العلاقة ضمن الإطار الجنسي، وهو ما يرفضه إيريك فروم صاحب كتاب "تشريح التدميرية البشرية" ليخبرنا في إحدى صفحاته عن ابتعاد الأمر برمته عن البيئة الجنسية، وارتباطه بالطابع الوجودي. وفي مرحلة معينة، يضطر الطفل إلي الابتعاد عن أمه، ويعمل علي تكوين روابط اجتماعية تحاول أن تذكره بهذا العمق الذي وجده في علاقته الأولي. ومن الممكن لهذه العلاقة أن تؤثر علي تكوين الفرد لاحقا، وقد تخلق قدرا كبيرا من حب السيطرة عند الشخص أو درجة عالية من التبعية، وهو ما يتبع تدريجيا واضحا علي مقياس السادية، والمازوخية. ومن الممكن أيضاً أن تساعد هذه العلاقة المتأصلة في خلق الشخصية النرجسية، وحب الذات، وهو ما يحدث في حالة الاصطدام بالكثير من العوائق، والانخراط في العديد من الصراعات. وربما أزيد علي كلمات

فرويد، وفروم عبر التنويه إلي ضرورة التمعن في أبعاد التجربة الوجودية المرتبطة بالطفل، وإدراكه لها، وتفهمه لحيثياتها حيث أري أنه من الصعب للطفل أن يدرك حقيقة الصراع الوجودي منذ ولادته، وأن الأمر يرتبط بإدراك الراشدين للتجربة، ونظراتهم العلوية إلي أبعادها، وأنه من الأفضل لنا أن نربط هذه البيئة بالطابع المجازي بعيدا عن الطابع الواقعي، وحرصا علي تحري الدقة، وبلوغ الموضوعية. من الأمور التي نلاحظها ضمن الإطار الشامل للطبيعة البشرية، حب الكلام، والانخراط في حالة دائمة من الوصف، والاهتمام بالتفاصيل، وهو ما يخلق بدوره حالة من التآلف بين البشر، ويعمل علي تكوين الروابط الاجتماعية المختلفة بينهم، ويساعد علي تجاوز الأزمة الوجودية عبر الإلهاء، والتجاهل. لكن من الضروري أن نؤكد علي حقيقة أن مجرد الكلام يساعد علي تحمل الحياة الصارمة، ويمكن الفرد من تصفية ذهنه، وهو ما يقود بشكل مباشر إلي الموضوعية، والطمأنينة، والتنور، والخلاص. وربما يعزل بعض الأفراد أنفسهم عن الأحاديث البشرية أو المبالغة في عملية الوصف؛ لأنهم يرون أنها تشكل مساحة تافهة من حيواتهم بالنسبة للوجود الإنساني، وأنها لا تخلق سوي حالة من الوهم، واللهو، وهو ما ترفضه هذه القلة مفضلةً الانعزالية علي الاجتماعية، ومتكيفةً مع هذه البيئة بشكل مستمر، وفعال. ولا أشير عبر كلماتي إلي

الانطوائية أو حالات التوحد لكنني أوجه حديثي في حقيقة الأمر نحو الكيانات الراغبة في العزلة، والمستمتعة بأبعادها المختلفة، والقادرة علي التجاوب، والتفاعل مع أركان التجربة الاجتماعية في نفس الوقت عند الحاجة، وهو ما يخالف خصائص الانطوائية أو التوحد المرتبطة بعجز الفرد عن التعامل، والتبادل بشكل جذري، وواضح. وتشير التفاهة الكلامية إلي ضحالة، ورتابة الأفكار المُقدمة، وتعبر عن نقص القدرة أو الفعالية اللازمة للانخراط في حديث مثمر، وجذاب، وذي تأثير واضح، وفعال. ومن الممكن لنا بسهولة أن نرصد حالة من النفور التي تشمل الأفراد تجاه الكيانات شديدة العجز، والتي لم يعد بحوزتها ما تقدمه من أحاديث شيقة أو أفكار متجددة. ولكننا إذا تحرينا الدقة والتزمنا بالموضوعية الواقعية، فإننا حينها نجد أنفسنا بصدد التعامل مع واقع يومي تافه؛ لأننا نعجز عن تحقيق التجدد الفكري والجذاب بشكل دائم، ومستمر. وهو ما يرصده الواقع الإنساني، والتجربة البشرية بصورة واضحة، وجلية. وقد تنظر بعض الكيانات المتدينة أو الكيانات الدينية المتعلقة بالعالم الآخر إلي الأحاديث الدنيوية علي أنها مبتذلة، وتافهة، وغير مفيدة؛ لأنها ترتبط بالعالم السفلي أو الدنيوي وفقاً لمنظوماتها الفكرية، حيث تري أن الحديث عن المعيشة، والملبس، والمسكن، والحروب، والمجاعات، واللصوص، والعطور، والنساء، والخمر، والمخدرات،

وغيرها من الموضوعات الدنيوية ما هو إلا عائق كبير يحد من الوصول إلي الطمأنينة، والتنور، والروحانية المنشودة. وقد يكون الحديث الأكثر تفاهة هو حديث الفرد عن نفسه؛ حيث يدور حديثه الأبدي عن أدق التفاصيل بحياته، ويتضمن الكثير من الأمور التي تبدو بالنسبة إليه كأنها مركز العالم أو المحرك الرئيسي لصراعاته أو الموجه النشط لدفاته. وهو ما يرتبط بنظرته الضيقة، وعدم قدرته علي تجاوزها، وغياب إدراكه لحجم الكون، ودقة تفاصيله، ولا يمكننا أن نلومه علي ذلك؛ لأن الأمر يمثل برمته الطبيعة البشرية الملاصقة للإنسان، والبعيدة كل البعد عن مفارقته أو الانسلاخ من جلده. ومن الواضح أن الإنسان المعاصر إنسان جماهيري، واجتماعي بجدارة لكنه في نفس الوقت وحيد للغاية. وهو ما عبر عنه ديفيد ريزمان في كتابه "الحشد المتوحد"؛ حيث يري أن الإنسان الحالي يهاب التواصل عن قرب مع الآخرين لكنه خائف بالقدر نفسه من الوحدة، وغياب التواصل. أري أن الكيان البشري في حقيقة الأمر مبني علي التذبذب، والتحرك، وهو ما يخلق حالة من الرغبة في التواصل أحياناً، والرغبة في الانعزالية أحياناً أخري، وربما يمثل الإنسان المعاصر حالة من التعقيد غير المسبوق لكنه في نفس الوقت يعبر عن النشاط الإنساني المعهود منذ بداية الخليقة. يشعر الإنسان بنفسه ووجوده عبر انخراطه في الكثير من الأحاديث اليومية المكررة، ويؤكد علي ذاته من

خلال كلماته الدقيقة عن ماضيه، وحاضره، ومستقبله، وعمله، وأسرته. وربما يرتفع بالنغمة ليخبرنا بشكل دائم عن إنجازاته، والتي قد يطولها قدر كبير من المبالغة بين الحين، والآخر. وتُعد الكلمات ركنا أساسيا من أركان التجربة المرتبطة بتحقيق الذات، فعبرها يرصد الكائن البشري إنجازاته، وبواسطتها يتحدث عن كيانه، ويطمئن نفسه بوجوده، وتأثيره. وبالرغم من حقيقة تلاشيه بعد فترة من الزمن، تبقي هذه البيئة داعما صريحا لوجوده المؤقت، ومعبرا واضحا عن كيانه المحدود ضمن البيئة الشاملة للكون الفسيح. تعمد الأحاديث البشرية إلي الحصول علي أكبر قدر ممكن من الإيضاحات، وتعمل علي تفسير تحركاتنا، وتصرفاتنا لغيرنا، وللمحيطين بنا. ولكن لماذا نهتم إذا لم يفهم الآخرون تصرفاتنا؟ .. إن مطلبهم بأن نفعل فقط ما يمكنهم إدراكه هو محاولة لإملاء أفعالنا علينا، وربما تمتلكهم حالة من الغضب، والثوران، والغليان، والهياج إذا أفصحنا عن ذواتنا، وأثبتنا حريتنا، وشجاعتنا، وإقدامنا، ورباطة جأشنا. لسنا في حاجة إلي تقديم إيضاحات عن أنفسنا، ولسنا مضطرين إلي تفسير تحركاتنا أو محاسبة أنفسنا أمام الآخرين طالما أننا لا نؤذي أحدا، ولا تقتحم أفعالنا خصوصية أحد، وهو ما يمثل المنطق والفكر الموضوعي الرشيد. وبالرغم من كلماتي السابقة، إلا إنني أرغب في التطرق إلي الأمر من زاوية أخري عبر التعرض إلي حقيقة العالم الجديد القائمة علي

التسارع، والتجاوز، والتي قد تخلق علي المدى البعيد حالة من الانفصال، والعزلة، مما يؤدي بشكل مباشر إلي عدم توافر البيئة المستقرة اللازمة للانخراط في أحاديث بشرية مطولة لتنتج في النهاية حالة من عدم القدرة علي التجاوب الفعال مع تصرفات غيرنا أو غياب المساحة اللازمة لتحليل تصرفاتنا الشخصية نفسها. وربما تأخذنا الطبيعة النشطة، والسريعة للحياة إلي حالة من عدم الاهتمام بأفعالنا الشخصية، وعدم التركيز عليها أو الاهتمام بها أو السعي نحو إدراكها، وهو ما يتطور تدريجياً مع التقدم في العمر، ويتناسب طردياً مع حجم التقدم البشري، ومدي تسارع الحراك الإنساني. وتختلف درجة الإدراك بين البشر، وبعضهم البعض، وتتنوع وفقاً للعديد من العوامل المختلفة لكنها لا تشهد حالة من الغياب التام أو الاختفاء الكلي؛ لأنها تمثل الكيان الإنساني، والإحساس بالوجود بصورة منطقية، ومباشرة. لكنني أرغب في التطرق إلي عملية الإدراك بصورة مختلفة عبر التمعن في فكرة "الأم وزجاجة اللبن"؛ حيث تحمل الأم إلي طفلها الصغير زجاجة اللبن مستمتعةً بإدراكها للحظة الراهنة المرتبطة بتلذذها بقدرتها علي منح الرعاية، والعطاء، وإحساسها بوجودها، وشعورها بذلك، لكنها في نفس الوقت لا تدرك الصورة ضمن الإطار الأكبر المتمثل في تمكن التلاشي الحتمي منها، ومن طفلها علي المدى البعيد، وأن هذه اللحظة المؤثرة

بالنسبة إليها لا تمثل شيئا هاما بالنسبة لعمر الكون السحيق؛ أي أنها تدرك ببساطة لحظات التطور، وتتجاهل بحكمة تصورات التدهور، وهو ما يمثل الحراك البشري المتفائل بوجه عام. ومن الممكن أن ننظر إلي عملية الإدراك بصورة أكثر اختلافا عبر التعرض لممارسات الفسق أو الفساد التي يمارسها الأفراد بصورة مضطربة في البدايات ليشملهم التأقلم، والاعتياد مع مرور الوقت، وليتلاشي الإدراك الفعلي المُمارس من قبلهم تجاه الحقيقة المتمثلة في خروجهم عن العرف المجتمعي أو الديني ليخلق عندهم حالة من الاضطراب لاحقاً حينما يفاجئهم الواقع بمشاكله، ومسئولياته. وضمن النطاق التقليدي، من الضروري أن نؤكد علي عدم قدرة الإنسان علي الإدراك الكامل لنشاطه أو التحقق التام من مجريات أمور حياته أو النشاطات المختلفة المُمارسة من قبله أو من قبل غيره. ومن الهام أن نشير إلي حقيقة أن العقل الواعي لا يمثل جزءا كبيرا من العقل البشري عندما نضعه في مقارنة مباشرة مع العقل الباطن، والعقل اللاواعي. ورجوعاً إلي الكلمات وتأثيراتها واستخداماتها، فمن الواضح أننا قد توصلنا إلي نتيجة رائعة فيما يخصها، ويخص تصرفاتنا، وتحركاتنا التي نعبر عنها من خلالها، وتتمثل هذه الحقيقة بسهولة في أننا لسنا بحاجة لتوضيح أفعالنا؛ لأننا ببساطة لا ندركها بالصورة الكاملة، ولا يُتاح لغيرنا أن يدركها بشكل مثالي، ولا تهيئ التجربة البشرية لهم أن

يفهموا أفعالهم فهما كاملا أيضاً، وهو ما يثير الغموض، والريبة بطبيعة الحال. ولا تبرر كلماتي السلوكيات البشرية المبنية علي تأصل الشر أو نزعة التدمير، ولا تعني بالضرورة غياب الرقابة الذاتية عند الفرد أو عدم قدرته علي التحكم بها لكنها تمثل إشارة مباشرة إلي غياب الكمال أو المثالية عن النشاط البشري الذي لا يمكننا أن ننكر تأثيراته، ونتائج أفعاله الإيجابية حينما يُستخدم ضمن الإطار الصحيح بين الحين، والآخر. في كتابه "فن الوجود"، يري إيريك فروم أن هناك اختلافا كبيرا بين الإدراك، والفكر عندما يتعلق الأمر بإدراكنا لمشاعرنا، وأمزجتنا. فإدراكنا لشعور المرح أو الحزن أو الخوف أو الكره لا يعني بالضرورة القدرة علي التأمل، ولا يشير إلي ثبوت حالة التفكير، والتحليل، لكنه يمثل ببساطة إثباتا للشعور دون تعرضه للكبت أو المنع. أري أن ممارسة النشاط تختلف عن تحليله، وإدراكه، والتعبير عن المشاعر يختلف عن فهمها، والتعرف علي أبعادها، وهو ما يرتبط بصورة مباشرة بالوعي الإنساني، ودرجاته المختلفة، والمتعددة. ولا يشير الحراك الإنساني بالضرورة إلي القدرة علي فهمه، والتحقق من أبعاده الكاملة، ولا يعبر الصراع الوجودي عن الإدراك الكامل للأهداف الإنسانية أو الغايات البشرية، وهو ما يؤكد حقيقة أنه من الممكن للإنسان أن يخوض الصراع أو يتعرض للكثير من الأحداث أو يراوده العديد من المشاعر دون القدرة علي الإلمام الكامل

بالتجربة، وبالرغم من ذلك قد يساعده وعيه في إدراك بعض تفاصيلها، والتعرف علي بعض خباياها. يشير الإدراك إلي التناقضات التي يتم إنكارها في الحياة الاجتماعية، ويخلق درجة عالية من الرؤية، ويمنح الفرد القدرة علي التخلص من أوهامه، والوصول إلي جذور الظواهر، وإدراك أسبابها بصورة موضوعية، وواعية. وكما قلت مسبقاً، تختلف درجة الإدراك بين البشر، وبعضهم البعض، وهو ما يؤدي إلي سيطرة الأوهام علي البعض، وهروب البعض الآخر من حيز الأوهام، والوصول إلي الحقائق، والتعامل مع الواقعية الاجتماعية بالشكل اللائق، والمناسب.
ولكن هل يمكننا أن نواجه الواهمين بالحقيقة، وهل تُعد تعرية جهل المرء أمرا مرحبا به؟ ومن عليه أن يواجههم؟ وما هي الصلاحيات التي تسمح له بذلك؟ وغيرها من الأسئلة التي تؤكد صعوبة الوصول إلي نتيجة حتمية فيما يخص التفرقة بين الوهم، والحقيقة. وفي نفس الوقت كثيراً ما يلاعبنا فضولنا الحماسي نحو هيئة الصورة الناجمة عن تخلي الإنسان عن أوهامه، وتجلي الحقيقة أمامه، وإدراكه لماهية الصراع الوجودي الحتمي، وأبعاده التي لا مفر منها، ولا مناص من تأثيراتها. يبدو أنه من الأفضل للإنسان أن يخوض التجربة معتمداً علي الوهم عوضاً عن الحقيقة الشرسة، وسعياً نحو إدراك أهدافه دون السماح للحساسية الزائدة أو التفاعلية المفرطة بالنيل منه. في رواية "التحول" لفرانز كافكا، يستيقظ

بطل الرواية ليجد نفسه قد تحول إلي حشرة. وفي إحدى القصص القصيرة لجابرييل جارسيا ماركيز، تبحث الشخصية الرئيسية عن قطة لتستنسخ نفسها، وبصورة ساخرة يتحول بطل إحدى روايات فيليب روث إلي ثدي عملاق حينما يغادر سريره. قد تثير هذه النماذج درجة كبيرة من السخرية حينما نتأملها للوهلة الأولي لكننا ندرك معناها، والفكرة القابعة خلفها حينما نمعن النظر في حبكتها، ونتعمق في تحليل سطورها، حيث تشير حبكة "التحول" إلي العزلة، والإحساس بالدونية، وتعمل علي التطرق إلي حقيقة الإدراك البشري، والهيئة الجديدة المسيطرة علي الشخصية الرئيسية، وكيفية تكيفه مع وضعه الجديد، وتلاشي وظائفه الحيوية والفعالة بالنسبة لأسرته بعد تغير هيئته، ومدي تأثير الموقف علي الوعي الفردي والجمعي علي السواء، والانعزالية المهيمنة عليه كنتيجة للتغيرات الطارئة علي كيانه. كما توضح الطبيعة البشرية المتمثلة في التكيف، والتعود مع الأوضاع الجديدة، والتغيرات الطارئة، والتحولات المرتبطة بالهوية، وهو ما تتطرق إليه الرواية عبر الاهتمام بالوعي الفردي الخاص بالشخصية الرئيسية، والوعي الجمعي المرتبط بعائلته، والمحيطين به. وتتفق هذه البيئة بأكملها مع المنظور الخاص بفيودور دوستويفكسي، والذي ينظر إلي الإنسان علي أنه الكائن القادر علي التكيف مع كل شيء، والتعود علي كل تغيير. وبالنسبة لقطة ماركيز، فإننا بصدد التعامل مع

حالة مختلفة، وجديدة، حيث تعمل بطلة الرواية علي محاولة الانسلاخ من جلدها، وتجاوز الجسد البشري، والتنقل إلي الماورائيات، وما يكمن خلف الطبيعة، وما يمثل الروح، والروحانية، وبالرغم من ذلك يبقي هدفها المتمثل في محاولة الهروب من الواقع أمرا صعب المنال، والبلوغ، وهو ما تتناوله سطور القصة القصيرة بصورة غامضة. أما روث، فإنه يعمل علي محاكاة كافكا إلي حد ما، ويعمد إلي عملية التحول المباشر المسيطرة علي الشخصية الرئيسية المتحولة إلي ثدي غريب قادر علي فعل كل شيء، والتجاوب مع كل حركة لكنه عاجز عن الوصول إلي الذروة الجنسية، وهو ما يمثل العديد من الإشارات المحورية غير المباشرة إلي الوجود الإنساني ضمن أسلوب فكاهي بوجه عام. تتلاعب هذه الأفكار بناموس الطبيعة، وتحاول أن تخلق بيئة حماسية من التفكير الوجودي، والتمعن في طبيعة الإنسان، وماهية الوجود الإنساني. وهو ما يمثل المحور الرئيسي للكثير من الكتابات بشكل مستمر، ودائم. ولا ترتبط الانعزالية، والرغبة في الهروب من الواقع بالإحساس بالدونية بالضرورة، ولا تتصلا به بصورة واضحة، ولكن من الممكن أن تؤدي العزلة إلي تملك الدونية من الفرد، وإحساسه بأنه غريب عن كل ما يحيط به أو يسكن حوله في حالات كثيرة، وهو ما يمثل أمرا شائعا حينما يخلو المرء بنفسه منهمكا في بيئته الخاصة. وقد تشير العزلة إلي محاولة الكيان الفردي تجنب

التفاعلات البشرية أو المواقف الاجتماعية حرصاً منه علي الاختلاء الدائم بنفسه، وهو ما يخلق له بيئة هادئة، ومستقرة وفقاً لمنظوره الشخصي بالرغم من مخالفة الأمر للطبيعة الاجتماعية البشرية المتأصلة. لكن من الضروري أن ندرك الحقيقة المتمثلة في أن الانعزالية أو الصمت لا يشيران بالضرورة إلي خلل ما، وأن هذه الحالة قد تنبع ببساطة من موقف شخصي مُسبق أو رؤية مُحددة ينتهجها الكيان الفردي بشكل دائم، ويعمل علي تدعيمها. وبالرغم من ذلك، قد تؤدي الظروف المحيطة بالكيان الفردي أو التجارب المؤثرة علي مساره إلي إدراجه في بيئة من الصمت الدائم، وهو ما يرتبط بمنظومته النفسية في هذه الحالة، ومن الممكن للفرد أن يلجأ إلي العزلة كنتيجة لإحدى الصدمات أو المشاكل التي يصعب التفاعل معها أو التعامل مع آثارها، ونتائجها. ومن الممكن أن نتطرق إلي الموضوع من زاوية أخري عبر التعرض إلي فكرة "العزلة الوجودية"، والتي تشير إلي الإحساس اللاواعي بعدم القدرة علي العودة إلي رحم الأم حيث الطمأنينة، والأمان، وتعبر عن حتمية التجول عبر الأرض ضمن مسئولية فردية كاملة، ودون وجود رفيق. وقد يختلف الأمر بين الأفراد، والمجتمعات وفقاً لمرجعياتهم الدينية، وخلفياتهم الثقافية؛ حيث يمنح الدين الإنسان نوعا آخر من الإحساس، ويساعده علي بلوغ درجات عالية من الطمأنينة عبر التوكل علي الإله، والاعتماد عليه مع

الأخذ بالأسباب، والسعي إلي الأمام، وهو ما يمثل الفكر الديني بصورة واضحة. ورجوعاً إلي موضوع الإلهاء واعتماد العقل البشري عليه كوسيلة احتيالية في التعامل مع الأزمة الوجودية، فمن الممكن لنا أن نتطرق إلي اللذات المختلفة، والتي يسعي الكيان البشري نحو إدراكها بشكل دائم ومستمر، حيث تصف اللذة الحالات التي يعتبرها البشر مبهجة أو إيجابية أو تستحق العناء، وتشمل العديد من النشاطات، والممارسات المرتبطة بالنشوة، والسعادة، والاستقرار. وتُصنف ضمن الإطار الذاتي المرتبط بالفرد نفسه، وإحساساته المتدرجة والمختلفة حينما يخوض التجربة أو يتعرض إلي أبعادها. يعمد مذهب المتعة أو "الهيدونية" إلي اعتبار المتع الغاية الأسمى للكائن البشري، ويؤكد علي أن السعي نحو إدراكها يمثل أمرا هاما لا يمكن تجاهله أو التغاضي عنه. ويعتمد مذهب المتعة الأخلاقية علي فكرة أن للبشر جميعاً الحق في الحصول علي درجات عالية من السعادة، والمتعة، وأنه من الضروري لهم أن تتجاوز متعهم حجم معاناتهم بشكل واضح، وظاهر. وتذهب "الأبيقورية" إلي حقيقة أن اللذة لا تتمثل سوي في الخير الأسمى، والألم هو وحده الشر الأقصى، ويُقصد باللذة في هذه الحالة الانخراط في حالة من السعي الدائم نحو التحرر من الألم، والاهتياج العاطفي، والابتعاد عن المتع الحسية، والاهتمام بالفضيلة بصورة رئيسية وفقاً لأبيقور. وقد حلل الرازي في

كتابه "النفس والروح" أنواعا مختلفة من المتع الحسية، والذهنية، وعبر عن الكثير من الصلات بين اللذات البشرية، وأكد علي تعدديتها، وصعوبة إرضائها بالشكل الكامل. وإذا نظرنا إلي الأزمة الوجودية علي أنها نقطة محورية لحديثنا، فحينها من الممكن أن نعامل اللذات الحسية، والذهنية كوسيلة احتيالية للإلهاء، وإذا تجاهلناها بصورة افتراضية تامة، نجد أنفسنا أمام حالة طبيعية من السياق البشري التقليدي، والذي يشمل الكيان الفردي بسعيه المألوف نحو إرضاء احتياجاته، والحصول علي اللذة، والمتعة كوسيلة تحفيزية للاستمرارية، والمضي قدماً إلي الأمام. وقد تمثل المبالغة في السعي نحو المتعة أو اللذة أمرا هداما علي المدى البعيد نظراً لبلوغ الفرد حالة من التكيف العقلي مع مرور الوقت، ليشعر بدرجات أقل من التأثير. كما أنه من الممكن لعمر الكائن البشري أن يلعب دورا محوريا ضمن البيئة الشاملة للمتعة بشكل عام. ومن السهل للإنسان أن يدرك المتع الحسية ضمن إطار أسرع مقارنةً بالمتع الذهنية، وبالرغم من ذلك تبقي المتع الذهنية الأكثر تأثيرا، والأعلى مكانة علي كافة المستويات لكنها تحتاج إلي مجهود أكبر، وإخلاص أعمق بطبيعة الحال، وهذا ما يمكن رصده ضمن النظرة التقليدية الشائعة. ومن الممكن أن ننظر إلي المتع ضمن السياق الرباعي الأكثر تعمقا، والذي ينظر إلي المتعة الجسدية علي أنها الأقل، وتتمثل في الأكل، والشرب، والجنس، ويصنف

المتعة العاطفية المرتبطة بالأحاسيس، والمشاعر ضمن إطار أعلي، ويمنح المتعة الفكرية أو الذهنية درجة أعلي مقارنةً باللذة الجسدية، والإرضاء العاطفي، وينتهي بالمتعة الأهم، والأكثر تأثيرا، والتي تتمثل في الروحانية المرتبطة بالدين، وتجاوز الجسد. ومن الممكن أن نتجاوز سياق المتع، ونعمد إلي فكرة السعادة، ومدي تأصلها، وحجم السعي البشري نحوها لنستنتج في نهاية المطاف أنها تتمثل ببساطة في بلوغ الاستقرار، والطمأنينة، والإحساس بالأمان، وراحة البال. وقد ينغمس الكائن البشري في المتع الحسية الخالصة بصورة مبالغ فيها، وضمن إطار مبني علي الإدمان حينما يستسلم أمام صراعات الأزمة الوجودية، ويتعامل معها بصورة سلبية، وعندما يعجز عن بلوغ المتعة العاطفية أو اللذة الذهنية أو الوصول إلي العالم الروحاني عبر التمكن من مغادرة حيزه الجسدي المحدود. ولا يمكننا أن نعمد إلي المتعة الحسية بصورة رئيسية كوسيلة لبناء أسلوب حياة مثمر، ومفيد، ولا يصح أن نتجاهل الحقيقة المتمثلة في إيجابية الحياة القائمة علي السعي نحو "اليودامونيا"، وعبثية المسار القائم علي "الهيدونية" حينما تخرج عن الإطار الوسطي الفعال. ومن الممكن الربط بين المتعة، والسعادة عبر التمكن من خلق معني للوجود المتعلق بالكيان الفردي، وهو ما يمثل مسئولية كبيرة، وحملا ثقيلا بالنسبة إليه. وعندما ينجح في تحقيق ذاته وخلق معني لحياته، تتوفر

له الطرق اللازمة لإدراك المتع المختلفة، وتنبثق السعادة من بين ثناياها حينما تُرضي ضمن إطار وسطي، ومنطقي، حيث أنه من المهم أن نؤكد علي حيوية الانقطاع فيما يخص المنظومة الشاملة للمتع، والسعادة الناجمة عنها. فمن زاوية منطقية وبرؤية موضوعية، نجد أن الإحساس بالشيء لا يتأتي سوي من الغياب، ويخلق الغياب بدوره حالة من الاشتياق، وهو ما يعتمد علي التعرض للمتعة بين الحين، والآخر دون المبالغة أو الإدمان حرصاً علي عدم فقدان الإدراك الفعلي للمتعة، واللذة. وسواء استخدمنا هذه اللذات لإرضاء الاحتياجات أو عمدنا إليها كوسيلة للإلهاء عن حيثيات الأزمة الوجودية وكمحاولة لتجاهل أبعادها المختلفة، تبقي المتعة أو اللذة أمرا مثيرا للجدل، ولا أرغب في التطرق إليها علي المستوي العصبي أو الكيميائي أو الجسدي بوجه عام، ولكنني أسعي نحو إدراك قيمتها الفعلية علي أرض الواقع، ومدي تأثيرها ضمن التجربة الوجودية الكاملة. فهل من الممكن لنا أن نرصد لها نتيجة واضحة أو تأثيرا إيجابيا علي المدى البعيد؟ وهل تسعي نحو انتعاش النفس، وإرضاء الجسد دون زيادة أو نقصان؟ وما سر التردد عليها بين الحين، والآخر؟ وهل تتجاوز قيمتها الإرضاءات، والإلهاءات؟ .. أسئلة كثيرة من الصعب أن نجيب عليها بشكل واضح ومثمر، ولكن في نفس الوقت من الممكن أن نلخص كل هذه التساؤلات، وكل الفصول المرتبط بها تحت بند "اللذة الغامضة

للاشيء"، وهو ما يمثل عنوان هذا الكتاب الذي يحمل قدرا من الغموض يضاهي القدر الذي تحمله التجربة الوجودية بصورة كلية، وشاملة!. وتبقي رحلة البحث عن معني للحياة أمرا أساسيا، ومُكررا، ومتناقلا بين الأجيال المختلفة، والمتلاحقة. ويبقي البحث عن السعادة، والاستقرار مطلبا جماهيريا هاما، ومحفزا للحراك الوجودي بشكل عام. وهنيئاً لمن تمكن من إدراك اللحظة، والتفاعل معها، والاستمتاع بحذافيرها دون المبالغة في التفكير بأبعاد المستقبل، وبعيداً عن صراعات الماضي المندثر. ففي النهاية، يخضع الماضي، والمستقبل لبيئة خارج إدراكنا، ويقع مستقبل الإنسان تحت بند المجهول بالنسبة إلي كيانه الفردي المحدود. وعندما نتحدث عن "الرومانتيكية" أو "الرومانسية" واستخدامها في السياق الإلهائي المبني علي التجاهل، ومحاولة البحث عن الخلاص، فإننا بصدد التعامل مع حالة من السعي نحو إدراك العزاء، وبيئة من الركض تجاه الملجأ، والملاذ. وربما يجد المحبان قدرا من الطمأنينة حينما يعليان بنغمتهما المبنية علي الرومانسية، وربما يدركان الأمن والأمان عبر تجربتهما الذاتية، وقد يجد كل منهما ملجأ من نوع آخر حينما يعمدان إلي عائلتهما، والأفراد المحيطين بهما. ولكنه من المؤكد أن الرومانسية غير قادرة علي تجنيبهما حيثيات الصراع الوجودي، ومن المعروف أن حضن رجل لن يمثل بالنسبة إلي امرأة سوي ملجأ مؤقت لا يقدر علي حمايتها

من تبعات الأزمة الوجودية إلا لفترة قصيرة، وأن ثديي امرأة لن يمنحا رجلا سوي حالة من التخدير المؤقت العاجزة عن إبعاده عن صراعات الوجود الإنساني، وأن عاطفتها المُوجهة تجاهه ما هي إلا حالة من الإرضاء اللحظي الذي لا يعرف ثباتا أو استقرارا مما يجعله عاجزا عن إدراك الطمأنينة الدائمة، والمرغوبة. ظهرت الحركة الرومانسية أو الرومانتيكية في فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد، وسرعان ما راجت في العديد من البلاد الأوروبية لتصبح مؤثرة، وجلية. ولا يشير الفكر الرومانتيكي بالضرورة إلي استخدام الرومانسية كوسيلة للتحايل علي الصراعات الإنسانية، وبالرغم من ذلك يمكننا أن نتلمس بسهولة اعتماده الصريح علي العاطفة، والخيال. وينتقد الكثيرون الفكر الرومانتيكي، ويدعون إلي الابتعاد عنه، وعدم إتباعه؛ لأنهم يرون أنه يسلب الإنسان عقله، ومنطقه، ويبعده عن كل ما يحكمه العقل البشري، والفكر الإنساني، والذكاء، والحكمة، والوعي، والإدراك، والإرادة المُدركة. تجنح "الرومانسية" إلي تحجيم سلطان العقل، وتعمد إلي الشعور العاطفي، والأحاسيس الجياشة، والأفكار الرومانتيكية الجذابة. كما تؤكد علي ضرورة الانغماس في بيئة من التغني بالحب، والاندفاع الدائم تجاه عناصر الجمال، والبحث عنها. تهتم بالمرأة، وتعمل علي إبراز جمالها، وتعمد إلي الطبيعة، والتأكيد علي أهميتها كمصدر للفن، والجمال، وقد

تستخدم كل هذه المعطيات كوسيلة للهروب من الصراع الوجودي، وكطريقة للعزوف عن تبعات الأزمة الوجودية، وصراعات القدر الحتمية التي لا مفر منها، ولا مناص من الاشتباك معها. وبالرغم من محاولة الرومانسيين إدراك السلام العميق والطمأنينة المنشودة، إلا إننا من الممكن بسهولة أن ندرك عجزهم عن الهروب من الواقع، وفشلهم في تلافي صراعات الحياة. وبالرغم من ذلك، يبقي الخيال وسيلة للتخفيف من وطأة الصراع، ومسارا للتهدئة، والطمأنة حتي ولو كانت مؤقتة، وعرضية بالنسبة للسياق العام للوجود الإنساني. ومن الممكن بسهولة أن نتأمل معاً لوحة "متجول فوق بحر الضباب" لكاسبر ديفيد فريدريك، والتي تهتم بإظهار العنصر الرومانسي المتمثل في وقوف بطل اللوحة علي القمة العالية لأحد الجبال، وتأمله في أبعاد المنظر الطبيعي الماثل أمامه، والمُحاط بالضباب، وفي نفس الوقت، يظهر الطابع الوجودي عبر لمسات ريشة فريدريك بعرضه لفكرة الضباب، وسيطرته علي مستقبل الإنسان، وبثه للرعب في أعماقه كنتيجة لجهله بمستقبله، وعدم علمه بمجريات الأمور القادمة المهيمنة علي مسارات حياته الغامضة، وهو ما يؤكد حقيقة سيطرة الواقع علي فكر الرومانسيين، وعدم قدرتهم علي تجنب أركان الأزمة الوجودية، وغياب الإمكانيات اللازمة للعزوف التام عن الواقعية المتأصلة بالرغم من اعتمادهم علي الخيال، والعاطفة، وسعيهم الدائم نحو

التقليل من ثوران العقل، وتمكن الفكر. أدي غياب قدرة الرومانسيين علي تجنب الواقع إلي ظهور "الواقعية الرومانسية" التي تعمل بشكل صريح، ومباشر علي الربط بين أحداث الواقع، وخيالات الرومانتيكية، والرومانسية العاطفية. ومن الممكن أن نتأمل "الواقعية الرومانسية" بشكل واضح عبر التعرض إلي لوحة "الحرية تقود الشعب" التي رسمها يوجين ديلاكرو في خريف عام 1830 ليخلد أحداث الثورة الفرنسية التي قادتها المعارضة الليبرالية للإطاحة بالملك شارل العاشر. تجسد اللوحة إلهة الحرية كامرأة حاملة لراية الثورة (العلم الفرنسي) بينما تقود الشعب إلي الأمام محاطة بالعديد من الجثث التي سقطت كنتيجة للصراع الدائر بين الطرفين، وتستمد رومانسيتها من خلال التعرض إلي المشاعر المرتبطة بالبيئة المهيمنة عليها، والتي تتدرج علي مقياس العاطفة الإنسانية، وتظهر في هذا الكادر بشكل واضح من خلال التجسيد المباشر لبعض المشاعر الإنسانية المتمثلة في الغضب، والتحلي بالشجاعة، والبطولة، وحب الوطن، والسعي نحو الارتقاء به، والارتفاع بمكانته. في هذه الحالة، نجد أنفسنا أمام الصراع الوجودي المبني علي خلق معني للوجود الإنساني عبر التطرق إلي أحوال الوطن الجامع للكيانات البشرية المختلفة، وهو ما يؤدي بدوره إلي خلق بيئة مستقرة تعمل علي مساعدة الكيان الفردي في رحلته الوجودية المبنية علي الوصول إلي معني أو قيمة

ضمن إطار انعكاسي. نستشف من هذه البيئة الحقيقة الواضحة المتمثلة في عدم قدرة "الرومانسية" علي التخلص من صراعات الواقع لكنها تعمد إلي الارتباط به، والتخفيف من وطأته، وأزماته عبر التداخل بين ثناياه والتفاعل مع أركانه؛ لأنها في حقيقة الأمر عاجزة عن إبعاده بشكل تام عن الساحة الفكرية حيث أنه يمثل ببساطة الطبيعة الإنسانية، والوجود البشري، وهو ما يؤكد بوضوح حقيقة ارتباط العقل البشري بالواقع، والخيال علي السواء، وعدم قدرة أحدهما علي التخلص من الآخر، وضرورة التعامل مع كليهما ضمن إطار مبني علي التوازن، والتفاعل الإيجابي الفعال. ومن الممكن أن نعتمد علي "الفينومينولوجيا"، والاهتمام بظواهر الأمور دون التطرق إلي بواطنها، ومن الُمتاح لكل واحد منا أن يتجاهل الأبعاد الوجودية للتجربة الإنسانية بصورة مماثلة، لكننا حينها نجد أنفسنا منحصرين في إطار ضيق مبني علي التعامل مع الظواهر، والأحداث دون التطرق إلي معانيها، وماهيتها، والحقيقة القابعة خلفها. إن الاعتماد علي "الظاهراتية" وحدها يمثل وهما علي المدى البعيد، ويجسد حالة من تعمد العمى، ويعمد إلي تجاوز التجربة بكل ما تحمله من صراعات، وعقبات دون الاهتمام بجوهرها، والسعي نحو معرفة حقيقتها، وعندما نتجاهل "الفكر الوجودي" ونعمد إلي الظواهر الُمتاحة أمامنا، والتي تأخذ حيزا كبيرا من الواقع دون محاولة تحليلها أو التعرف

علي أبعادها، نجد أنفسنا في حالة من التخبط، والمعاناة. في الحقيقة، لا تسمح لنا عقولنا الواعية برصد الظواهر دون أن ننخرط في تحليلها، والتعرف علي مكامنها، وبالرغم من ذلك يمكننا بكل سهولة أن نرصد اختلافا كبيرا بين الكيانات البشرية فيما يخص عملية الرصد، والتحليل، والتحقيق. بالطبع، تختلف المدارس والمنظومات التابعة للفكر الفينومينولوجي، وتتنوع، وتتدرج لتبدأ بمن يهتم بالظواهر دون تحليلها، ولتمر بمن يرصدها، ويحللها دون تعمق، ولتنتهي بمن يرصدها، ويحللها، ويتعمق في دراستها، وينخرط في التعرف علي حقيقتها، وماهيتها، وهو ما يمثل اتصالا واضحا بين "الظاهراتية"، و"الوجودية" بشكل صريح، ومباشر، وقد تنبثق "الفينومينولوجيا الوجودية" من رحم هذه الأفكار لتهتم بالظواهر، وتعمد إلي تحليلها بصورة مترابطة، ومتلازمة دون انفصال أو تباعد، وقد تهتم "بالأنطولوجيا" في المقام الأول، وتعمد إلي "الإبستمولوجيا" بعد ذلك، وهو ما يرتبط "بالفينومينولوجيا" أو "الظاهراتية" ضمن المفهوم الواسع، والإطار الشامل. ترتبط "الظاهراتية" بالوعي البشري بشكل مباشر، وتعمد إليه بصورة رئيسية باعتباره الراصد المنطقي للظواهر المختلفة المتمثلة في النشاطات، والتحركات، والأحداث، والأفعال، والتغيرات. ومن الممكن لنا أن ندرك الظاهرة أو الحدث ضمن الإطار المحدود المبني علي

التفاعل معها بشكل فردي دون التطرق إلي البيئة الشاملة، ومن الممكن للوعي الراصد أن ينظر إلي الأمر بصورة مختلفة عبر ربط الظاهرة بالصورة الأكبر، والإطار الأوسع، والأكثر شمولية للظواهر، وهو ما يمثل الدقة، والموضوعية، ويهيئ في نفس الوقت الطريق أمام التحليل العميق، والدقيق. تمنعنا "الظاهراتية الخالصة" من إدراك المعني، والوصول إلي الغاية، والتحقق من خفايا الأمور، وهو ما يمثل عائقا كبيرا أمام سعينا الدائم نحو فهم ذواتنا، وتحليل وجودنا، وإدراك الأحداث التي تداهمنا، وتشريح التجربة الإنسانية الخاصة بنا. وبالرغم من عدم قدرتنا علي تحقيق الفهم الكامل للتجربة البشرية كما قلنا مسبقاً، إلا إنه من الممكن لنا أن ندرك بعض أبعاد التجربة، ونتحقق من بعض معانيها ضمن إطار حماسي نشط. وهو ما يدفعنا نحو المضي إلي الأمام، ويملأنا بالحماسة، والإبداع علي المدى البعيد. وأؤكد من جديد علي حتمية تملك البيئة الوجودية لأفكار العقل البشري بين الحين، والآخر، واستحالة المرور عبر التجربة دون التساؤل عن حقيقتها، ومعناها في فترة ما، وهو ما يمثل التجربة البشرية المُكررة التي تسعي نحو نفس الإرضاءات، والحقائق بشكل دائم ومستمر، وتصل إليها بدرجات مختلفة، وعبر وسائل متدرجة، ومتنوعة. وعندما نتحدث عن "الظاهراتية" المهتمة بكيفية إدراك الوعي للموضوع، ووصوله إلي معرفة موضوعية، ويقينية

حوله، فإنه من الضروري أن نشير إلي حقيقة عدم اهتمامها بما يصاحب عملية المعرفة من حالات ذهنية أو وظائف عضوية أو مسارات عصبية متعلقة بالنشاط المرتبط بالمخ البشري لكنها تعمد إلي العقل كمنظومة ساعية نحو تحليل الأمور، وتفسير الظواهر بصورة مباشرة. وقد تتمثل "الفينومينولوجيا" في الاهتمام بالظاهرة من المنظور الفلسفي فحسب دون التطرق إلي أبعادها العلمية أو الداخلية، وهو ما تمثله ،علي سبيل المثال، ظاهرة الضوء الأخضر الذي يظهر بشكل فجائي عند غروب الشمس أحياناً، حيث أننا في هذه الحالة ننظر إليه ضمن الإطار الفلسفي أو السياق القائم علي الرصد المباشر المتعلق بوعي الفرد دون الاهتمام بالإطارات، والسياقات الأخرى المتعلقة بالظاهرة نفسها. وعند اعتمادنا علي القياس الموازي، ننظر إلي الأحداث التي نتعرض لها في حياتنا دون التطرق إلي أبعادها العميقة أو الجذرية، وقد نكتفي بالمنظور الفلسفي فحسب. وضمن سياق آخر، قد ننظر إلي أفعالنا دون البحث عن معناها أو السعي نحو فهمها أو إدراك الغاية منها، وفي نفس الوقت ننخرط في ممارستها بصورة مستمرة ضمن إطار مبني علي الفهم الظاهري فقط.

وكنتيجة لذلك، من الممكن أن ننظر إلي "الظاهراتية" علي أنها مجرد الاهتمام بالظاهرة المعروضة وفقاً لرأي المتلقي أو الراصد دون السعي نحو إدراك الحقائق الموضوعية المرتبطة بالظاهرة أو الحدث، وهو ما يمثل

المنظور الذاتي بدلاً من الاعتماد علي المنظور الموضوعي. وقد تستمد "الوجودية" وحيها من "الظاهراتية" بصورة ما، لكنها تعمد إلي المزيد من التعمق، والبحث عن المعني، والاهتمام ببواطن الأمور، والعمل علي التوصل إلي الرؤية الموضوعية الخالصة، وهو ما يرتبط بمقدمات مُسبقة أو افتراضات سابقة قبل التعرض إلي الظاهرة أو الحدث. وتؤكد كلماتي السابقة علي أن "الظاهراتية" تهتم بالوعي البشري، وكيفية تفاعله مع الظاهرة، ولا تهتم بالظاهرة نفسها، ولا تتجاوز عملية رصدها، ولا تسعي نحو التركيز عليها أو تحليلها، بينما تهتم "الوجودية" بالوعي البشري، والحدث (الظاهرة) علي السواء، حيث تعمل علي التطرق إلي الصراعات الوجودية، والأحداث المؤثرة علي حيوات البشر، وتهتم بالكثير من الموضوعات المحورية المتمثلة في الموت، والسعادة، والحرية، ومعني الحياة، والحقيقة الكامنة خلفها، والقيم المرتبطة بها، وتهتم في نفس الوقت بالنتائج، والتفاعلات البشرية معها، ومع تأثيراتها. ورجوعاً إلي فكرة "المستقبل الغامض" وكرد فعل تلقائي لطبيعة الوجود البشري الصارمة، يعمد الإنسان إلي تكوين جماعات، وقبائل، وأحزاب حرصاً علي بلوغ الطمأنينة، والاستقرار. ويعمل علي الانخراط في عملية نشطة من التنظيم، والإعداد، والتخطيط، وحينها يجد نفسه أمام حالة من التدرج الواضح، وهو ما يستلزم وجود منظومة علوية تكمن مهمتها في

القيادة، والإدارة، والحفاظ علي التوازن المجتمعي العام، لكن في نفس الوقت ومع مرور الزمن، يشهد المرء حالة من السلطوية القمعية، والشمولية، والتحكم السلطوي القامع، والمتغطرس، وهو ما يمكن أن نشهده بكل سهولة في الكثير من دول أميركا الجنوبية علي سبيل المثال. في هذه الحالة، تنخرط السلطة في الكثير من الممارسات السادية، والتي من الممكن للمجتمع أن يقبلها ضمن إطار مازوخي مبني علي الاستسلام، والاستمتاع بالخضوع، وفي نفس الوقت، من الممكن أن نجد معارضة كبيرة من قبل المجتمع، وهو ما يمثل المنطق، والواقع الملموس. وقد تأخذ هذه الممارسات السلطوية نصيبا كبيرا من الواقع الوجودي لتخلق عند الفرد حالة من اللغط، والخلط بين صعوبات التجربة الوجودية الطبيعية، والصعوبات الناجمة عن التعقيدات المرتبطة بالتخلف المجتمعي، والبيروقراطية العقيمة، والديكتاتورية المتأصلة، وحينها تنظر الأجيال المختلفة، والمتلاحقة إلي الصعوبات المُصطنعة، والناجمة عن سوء الإدارة علي أنها جزء من الصراع الوجودي الحتمي، والبيئة الطبيعية الشاملة للإنسان، وهو ما يخالف الواقع، والمنطق في حقيقة الأمر، ومن الممكن أن نشهد حالات مماثلة في الدومينيكان، وفنزويلا، وبيرو، ويمكننا أن نأخذ من رافائيل تروخيو مثالا واضحا للسلطة القمعية، والديكتاتورية المتأصلة، وهو ما يؤكده شعب الدومينيكان بصورة مستمرة ودائمة،

حيث يمثل الرجل حالة من تقديس الشخصية، والنرجسية غير المسبوقة، والسادية في نفس الوقت. تتسم السلطوية بحكومة مركزية صارمة، وحريات سياسية محدودة، وتُعتبر الشمولية نسخة متطرفة منها، حيث تسعي للتحكم بكافة أوجه الحياة بما في ذلك الاقتصاد، والفن، والتعليم، وأخلاقيات المواطنين. تخلق حالة القمع كيانا إنسانيا مُشتتا يشعر بالاضطراب، والحيرة في كل تصرفات حياته، وينخرط في بيئة من الخوف، والتفكير الزائد، والسعي نحو تجنب النشاط البشري قدر الإمكان حرصاً علي عدم التعرض لأي أذي أو ضرر. ويعمل الكبت، والقمع معاً علي تهديد مستقبل الاستقرار، ويدرجان الإنسان في بيئة من العزلة، والسعي نحو الانعزال حرصاً علي تلافي المشاكل، وتجنب احتمالية الإضرار بمصالحه إذا أفصح عن رأيه، أو عبر عن مشاعره، وهو ما تثبته التجربة البشرية بصورة متكررة. يعمد النظام السلطوي إلي شن الحملات المستمرة علي المجتمع المدني، ويخنق السياسات التعددية، ويمنع المواطنين من الانخراط في أي نشاط حيوي أو معارض، ويعمل علي تقنين السلطوية، والشمولية بشكل متأصل. بالطبع، تدخل هذه البيئة المضطربة الإنسان في حالة من التوتر الشديد، وتحد من تحركاته، وتضعه علي طريق مُحدد، وثابت، وبعيد كل البعد عن المرونة، والتطور علي كافة المستويات. وفي هذه الحالة يجد الكيان البشري نفسه منخرطا في المزيد من

الصراعات، وتراوده الحقيقة المؤلمة المتمثلة في الكبت بشكل مستمر، وهو ما يخلق عنده حالة من فقدان المعني، وضياع الأماني، والأحلام. نعلم جميعاً أن الأزمة الوجودية ترتبط بتساؤلات الإنسان عن معني حياته، ومدي جدواها، وحقيقة وجوده، والهدف من كيانه. ومع التخلف المجتمعي، والتدهور، وضياع الفرص، والتشتت الفكري، وكبت الأفكار، وخنق الحريات، وتسلط القمعية، وتأصل الشمولية، وانتشار الفساد .. تتفاقم المشكلة، وتتزايد حدة الصراع الوجودي، وتطفو الأزمة الوجودية علي السطح بشكل واضح، وظاهر. وقد تتعجب، عزيزي القارئ، من الربط بين الوجودية، والسلطوية لكنني عبر كلماتي السابقة أؤكد لك الحقيقة المتمثلة في تفاقم الأزمة الشاملة كنتيجة لتأصل الأزمة الجزئية، وأوضح أن غياب العدالة، والحرية يخلق بشكل مباشر حالة من التشتت الفكري، والصراع النفسي. وبتحقق التواصل بين هذه البيئة وبين الإطار المتعلق بالفكر الوجودي والبحث عن معني الحياة، نجد أنفسنا أمام حالة من الاضطراب في قمته، والصراع في أوجه. فعندما تتعرض النفس الإنسانية الداخلية المُفعمة بالمشاعر، والعواطف إلي حالة من الكبت المُطول كنتيجة للمخاوف العميقة، تمتنع الإرادة الفردية الموجودة في مركز الإحساس بالنفس عن السعي نحو التعبير أو إظهار الاهتمام أو الرغبة في أي شيء، وهو ما يمثل القمع السلطوي بشكل مباشر. ولا

تتمكن الإرادة من العودة إلي المسار الطبيعي دون طرد الشياطين، والتخلص من شرورها، وإعادة الاتصال بالأحاسيس المفقودة، والسعي الصامد نحو التعبير عنها من جديد، وهو ما يمثل تحديا كبيرا بصورة مؤكدة. بالطبع، ترتبط السلطوية بالضبابية المهيمنة علي المستقبل، وتجمعهما علاقة طردية واضحة، حيث يزداد غموض المستقبل، وترتفع درجة ضبابيته كلما تأصلت السلطوية، وترسخت أفكارها، وتمددت جذورها، وهو ما يمثل الاضطراب، وعدم القدرة علي إدراك الاستقرار أو الطمأنينة. وتؤدي القمعية إلي السيطرة علي كل شيء، وترتبط في أغلب الأحوال بالفساد، والتدهور المجتمعي، والتراجع الاقتصادي، والدوغمائية، وتقديس الكيان الحاكم، وغيرها من الظواهر الناجمة عن القمع، والكبت، والتسلط. وهو ما يؤدي بشكل مباشر إلي مضاعفة الأزمة الوجودية. وقد تنتج حالة من الفقدان التام للمعني، والقيمة، وحينها تتأصل بيئة الخضوع، والاستسلام. ورجوعاً إلي الصراع الوجودي، يصف كيرجورد الحالة البشرية علي أنها نضال فردي ضد الزمن الذي يلعب فيه القلق دورا أساسيا، ومحوريا. وترتبط التجربة البشرية بالرغبات اللانهائية للكيان الإنساني، والسعي الدائم نحو تحقيقها، والعجز عن إدراكها بالشكل الكامل. ومن الممكن أن نرصد سعيا مماثلا من قبل الإنسان نحو إدراك الملذات، والمتع، والمكاسب

العديدة المرتبطة بالحس والفكر، لكننا في نفس الوقت قد نجد الكائن البشري مشتتا بين الحنين إلي الماضي، والتفكير بالمستقبل، وهو ما يمثل عائقا كبيرا بالنسبة لعملية إدراكه للحظة، والاستمتاع بها. يري العدميون أن الوجود البشري مآله إلي العدم، وأن الحياة البشرية خالية من المعني، ويظهرون رفضا تاما لكافة المبادئ الممكنة، ويعمدون إلي تذكير الإنسان بمحدوديته، وحدوه بشكل دائم، ومستمر كي يستغل حياته استغلالا عدميا. وتنبثق العبثية من رحم هذه الأفكار لتصبغ التجربة الوجودية بالصبغة العبثية المتأصلة، وتؤكد علي أوهام الكائن المحدود. ويخالف الفكر العدمي الأفكار الساعية نحو إيجاد المعني، وخلق القيمة، ويختلف بشكل واضح عن الفكر الديني الرشيد، والذي يعمد إلي تأصيل المبادئ، وخلق القيم، ونشر الأخلاق، وتوطيد الأفكار البناءة. ومن الممكن للكائن البشري أن يعمد إلي عملية التجريد التي تنظر إلي كل شيء ضمن إطار مُجرد مبني علي التخلص من المعني، والتعامل مع الكيان البشري كجماد عديم الأفكار، والمشاعر، والأحاسيس، وتمثل هذه النظرة المُجردة إلي طبائع الأمور إطارا غير تقليدي يمكننا أن ندرج التجربة الوجودية ضمنه. لكن هذه الأفكار قد تضر بالكائن البشري علي المدى البعيد؛ لأنها تفقده الإحساس، وتسلبه العاطفة، وتحوله إلي مجرد جماد بلا روح، وهو ما يخالف الطبيعة البشرية الحماسية، والمتفاعلة ضمن إطار مبني علي

الحراك، والتبادل. وبالرغم من ذلك، لا يمكننا أن ننكر الحقيقة المتمثلة في أن النظرة الأكثر واقعية تخبرنا بأن الأفعال والأحداث المرتبطة بالماضي، والحاضر، والمستقبل لا تأخذ حيزا هاما من وتيرة الزمن، وأنها من الممكن أن تُعامل خارج إطار الوجود، وكأنها لا تأخذ نصيبا كافيا من التطبيق، والتنفيذ نظراً لعدم وجود قيمة فعلية مرتبطة بها، أو ظهور تأثير واضح، وجلي لها، وهو ما يرتبط بالنظرة الافتراضية للأمور بطبيعة الحال.

وتمثل حقيقة الفناء أمرا مؤرقا بالنسبة للإنسان، وتشارك بشكل مباشر في خلق الأزمة الوجودية، وتهدد الكيان البشري بالتلاشي، والاختفاء، وهو ما يدمجه مع بيئة من التفكير العميق، والسعي الدائم نحو فهم مساره، وإدراك قيمة وجوده. ومن الممكن أن نرصد هذه الحالة الوجودية من خلال الفيلم الإيطالي "الحياة الجميلة" للمخرج فيديريكو فيلليني، والذي يظهر الشخصية الرئيسية بالفيلم ضمن إطار مبني علي اللهث خلف الأحلام، والرغبات، والسعي نحو إدراك الهدف من الحياة، والعمل علي خلق أي قيمة ممكنة قبل تمكن التلاشي، وحلول الفناء. وقد نشهد حالة من الهروب، والتجنب عبر فيلم "الختم السابع" لإنجمار برجمان، والذي يظهر الشخصية الرئيسية بالعمل ضمن إطار مبني علي الهروب من الموت، ومحاولة تجنب الفناء، وتلافي الصراعات. ترتبط التجربة الوجودية بحقيقة التكرار المهمين علي الأجيال المتلاحقة فيما

يخص الفضول الكامن في عقولهم تجاهها، وتجاه معطياتها، وأبعادها، وهو ما يخلق قدرا كبيرا من الغموض المسيطر علي البيئة الوجودية بصورة متأصلة، وعميقة. في الحقيقة، من الممكن أن نلخص الحالة القابعة أمامنا عبر ربطها بثنائية الإنسان، والزمن من جهة، وثنائية الفناء، والخلود من جهة أخري، حيث يقف الإنسان في مواجهة الزمن محاولا مجابهة الفناء، وساعيا نحو إدراك الخلود، وهو ما يتصل بالوهم، والخيال بصورة منطقية، ومُؤكدة. يعيش الإنسان وضعا مفارقا، ومتأرجحا كبندول الساعة بين رغبته في الخلود التي تمنحه الاندفاع، والحماسة، والحراك، وبين حتمية الموت التي تعطل غروره، وتمنعه من التمادي، وتذكره بعجزه، وحجمه. وعندما يتحدث عن الموت، يعمد إلي التفكير بالفناء البيولوجي متجاهلا الحقيقة المتمثلة في أنه لا يقترن باختفاء الجسد فحسب لكنه يجلب الفناء إلي أركان التجربة بأكملها، وحينها يشمل التلاشي المشهد بصورة كلية. ومن الممكن للعقل البشري أن يأخذنا بسهولة إلي فكرة أن كل شيء باطل يسير إلي الزوال، والناس إلي الفناء، والأشياء تتحطم، والشهرة تنتهي، والأوقات تنقضي، وهذا ما عبر عنه تولستوي بشكل واضح في إحدى كتاباته. وقد يحل الدين هذه المشكلة عبر إشاراته الدائمة إلي الخلود الأبدي بعد الموت، وضرورة التعامل مع حقيقة الفناء الدنيوي بصدر رحب؛ لأن الحياة الأخرى تعد الإنسان

بالخلود، والبقاء، وهذا ما يعتمده الفكر الديني بشكل واضح، ومباشر، ويربطه بالرضا، والصبر، والتسليم. ومن هنا، يمكن للإنسان أن يعتبر التجربة الوجودية أمرا مؤقتا، وأن يرحب بكافة أبعادها، ويتعامل معها بشكل سلمي دون أي تشاحن، وهو ما يمثل تحديا كبيرا يحتاج إلي الصبر، والمثابرة بصورة دائمة ومستمرة. تري "الرواقية" أن الحياة الخيرة تكمن في التعايش مع الطبيعة، وتحقيق التوافق مع أبعادها، وتقبل كل ما يحمله القدر بصدر رحب ضمن إطار مبني علي الرضا، والتسليم، وهو ما يشير بصورة واضحة إلي انتهاجها لفكرة الانسجام، وضرورة الاندماج مع قوانين الطبيعة، والتكيف مع ماهيتها، حتي ولو كانت قاسية أو صارمة. يري نيتشه أن الإنسان يحقق التصالح الفعلي مع الوجود عبر الاعتماد علي لحظات انتصاره، وإحساسه بحريته، وإبداعه الدائم، وسعيه نحو اكتشاف المجهول، والتعرف علي حقائق الأمور. وعندما يتخلص من قيود الماضي ويتجاهل هواجس المستقبل ويتصالح مع الطبيعة ويتقبل الواقع بمجرياته، يصل إلي السكون والطمأنينة، والشعور بالأمن والأمان. ولكن هل يمكنه أن يدرك ذلك حقاً؟ وهل يمتلك القدرة اللازمة لبلوغ ما يريد؟ وهل يعرف طريقه أم يجهل غايته، ومساره؟ .. عندما نتأمل معاً رواية "الخوف والبغض في لاس فيجاس" لهانتر إس طومسون، نجد أنفسنا بصدد التعامل مع فكرة "القوالب المُسبقة" التي

يسعي المجتمع إلي تطبيقها علي الجميع، ويعمل علي توفير المناخ اللازم لانخراطهم فيها مقنعا إياهم أنها ستنجح معهم جميعاً دون استثناء، وأنها ستخلق لهم نمط الحياة الذي يحتاجونه. تعتمد فكرة الحلم الأمريكي علي توفير الفرص لأبناء المجتمع، وفي نفس الوقت تفتح الباب أمام المهاجرين من مختلف بلدان العالم، وتعمد إلي خلق بيئة من التطور، والعمل البناء، وتكوين الأسر، وتدعيم الاستقرار. بدأت كفكرة هادفة، وبناءة لكن سريعاً ما أتلفها الواقع المرتبط بتدهور الأخلاق، وغياب القيم، والمبادئ. ومع الجشع والفساد، تبخر الحلم، وتبقي منه القليل الذي لا يكفي لتحقيق المناخ المرغوب مُسبقاً. ترصد الرواية الأزمة الناجمة عن التحقق من أوهام الحلم الأمريكي، وتعمل علي عرض الشخصيات الرئيسية ضمن إطار عبثي مبني علي التخدير، والتجاهل، وعدم الانخراط في ممارسة أي نشاط مفيد أو مثمر. فبدلاً من وجود أحداث محورية ذات معني، نجد بطل الرواية منغمسا في التعرف علي كافة أنواع المخدرات الممكنة، وتجريبها بصورة إدمانية، وحماسية. وفي نفس الوقت، تظهر تأثيرات الهلاوس علي أبطال الرواية مرتبطة بالخيالات الجنسية الصريحة لتخلق في النهاية إطارا من التخدير الشامل، والمُضاعف. ويُعد الحلم الأمريكي وسيلة من الوسائل المُبتكرة من قبل البشر، والساعية نحو مجابهة تأثيرات الأزمة الوجودية، والتخلص من

هواجسها ضمن إطار مبني علي المحاولات المستمرة، والتي تبغي التنظيم، والتهيئة حرصاً علي خلق مستقبل مشرق للكائن البشري. ولا يمكننا أن ننكر إتاحة الفرص للكثيرين في الولايات المتحدة، ولكننا في نفس الوقت غير قادرين علي إدراك حجم الفرص أو التعرف علي مدي إتاحتها للجميع. وإذا كانت السلبية محورا رئيسيا من محاور الرواية، فهذا لأنها تعمد إلي توضيح عدم القدرة علي التكيف، وغياب الوسائل اللازمة لتطبيق التجربة بمقاييسها المُتخيلة، والمندرجة تحت بند الأماني، والأحلام. وكما قلت مسبقاً، ترتبط البيئة الجزئية بالبيئة الكلية، والشاملة، وتؤثران في بعضهما البعض بشكل مباشر. فكلما كان الإطار الواقعي، والحياتي سهلا أو خفيفا، قلت صراعات الأزمة الوجودية؛ لأننا حينها نجد أنفسنا قادرين علي إنجاز بعض الأمور، والتي من شأنها أن تسمح لنا بأن نشعر بأنفسنا، ونحس بقيمتنا، وهو ما يمثل إجابة مقبولة إلي حد ما عندما تتلاعب أسئلة الأزمة الوجودية بعقولنا، وحينما ننخرط في حالة من التأمل، والتدبر العميق. ومن الممكن لهذه الأسئلة المتكررة أن تملأ عقولنا بصورة نشطة عندما نتحدث عن الحرب، ومدي تأثيرها علي الكيان الإنساني، وبيئة الاضطراب والمأساة وغياب الوعي البشري وتلاشي العاطفة الإنسانية المقترنة بها، وهو ما يخلق حالة من الضباب لتهيمن علي الوجهة البشرية بصورة معتمة، وغامضة.

لكن النزعة التدميرية المتأصلة عند الإنسان تلعب دورا محوريا في بيئته، وتأخذ نصيبا كبيرا من تصرفاته، وسلوكياته، وقد يستمتع الإنسان عندما يعرض شروره، ويظهر نواياه الخبيثة علناً، ويستعرض جبروته، ويخرج طاقاته الدفينة؛ لأنه في هذه الحالة يجد نفسه مسيطرا علي الساحة، ومهيمنا علي أبعادها، وهو ما يخلق عنده شعورا راسخا من اللذة، والاستمتاع، والسادية. وربما نخبر جنودنا بضرورة الامتناع عن التلفظ بالكلمات البذيئة، لكننا في نفس الوقت نأمرهم بقتل البشر، وهتك الأعراض، وتدمير المجتمعات، ونشر الفتن، وهو ما يخلق حالة من التناقض عند الكيان البشري المهلك، والهالك علي السواء. وقد تعمل الصراعات علي تلاشي الكثير من الإنجازات البشرية، ومحوها دون أثر يُذكر، وهو ما يزيد من حدة الصراع الوجودي، ويدخلنا في معركة مباشرة مع الذات، ويدفعنا إلي الشعور بالفقدان، والضياع. ومن الممكن للصراعات البشرية أن تتطور مرتبطة بأسباب تافهة أو مشاكل سطحية لا تُذكر أو عجرفة مُمارسة من قبل أحد الطرفين المتشابكين، وهو ما يؤكد حماقة الكائن البشري، وسعيه للانخراط في المشاكل، وخلق الصراعات بالرغم من علمه الهائل بأهمية الاستقرار، وحجم السلام المرتبط به، والناجم عنه، والذي يؤدي بدوره إلي خلق بيئة من الحب، والإخاء، والرخاء، والرفاهية.

وتُعد الحروب إثباتا واضحا علي إمكانية اختفاء كل شيء، ومحو كل أثر، وتلاشي الكائن البشري بروابطه، وصلاته، وأفعاله، وكأنه لم يوجد أو يتواجد من الأساس. في لوحة "الصرخة" للفنان النرويجي التعبيري إدفارت مونك، نجد الخوف الوجودي متجسدا في قمته، ونشهد الصراع الأبدي واضحا وضوح الشمس في كبد السماء. تعبر اللوحة عن القلق الوجودي المصاحب للإنسان، والدراما المتوترة المهيمنة علي حياته، وترصد حالة الخوف، والتوتر التي تُعد المحرك الرئيسي لحيوات البشر، والسمة الرئيسية التي تعتمد عليها. استوحي مونك لوحته الفنية عندما خرج متجولا مع صديقيه في يوم من الأيام ليباغته شعور مفاجئ من الحزن والكآبة، وليسمع صرخة صادمة دون مصدر معلوم، وفِي نفس الوقت كانت السماء في طور التحول للون الأحمر الدموي لتشمله في النهاية حالة غريبة من الخوف، والإنهاك. تردد صدي الصرخة طويلا عبر الطبيعة المجاورة بشكل مخيف، وصادم، لتصبح هذه الصرخة المجهولة المصدر الرئيسي للوحته السوداوية الشهيرة. يظهر الخوف من خلال الملامح الخاصة بالشخص صاحب الصرخة، فنجد الوجه قد استطال، والملامح قد طُمست بشكل نسبي، واليدين قد رُفعتا لتغطيا أذنيه ضمن إطار يشمله الرعب، والقلق. كما تعبر الألوان الصارخة، والداكنة عن قوة الصرخة، ومدي تأثيرها. لكن هل هي صرخة نابعة من الطبيعة؟ أم

من شخص مجهول الهوية؟ أم من أعماق النفس البشرية المنهكة بشكل عام؟ .. وفي لوحة "غموض الأفق" للبلجيكي رينيه ماجريت، نري ثلاثة أشخاص منخرطين في عوالمهم الخاصة، وآفاقهم المتباعدة، وفِي نفس الوقت نجدهم معتمرين لقبعاتهم المميزة التي عاهدناها باستمرار في أعمال الرجل. ينظر كل منهم في اتجاه مختلف عن الآخر منغمسين في عوالمهم الفردية التي تظهر من خلال الاختلاف الواضح في مسارات رؤيتهم، وكأن كلا منهم ينظر إلي سمائه الخاصة، والتي لا تتقاطع مع سماء الآخر. في هذه الحالة، تمثل اللوحة تعبيرا واضحا عن الانعزالية، والفرقة، وانغماسية كل إنسان في عالمه الخاص، لكن إذا نظرنا إليهم جميعاً علي أنهم شخص واحد فحينها تعبر الصورة عن التشتت الداخلي، والحيرة. وفي لوحته "العاشقان"، نرصد تعبيرا واضحا عن الحواجز الكثيرة، والعقبات المتعددة التي تحول بين أقرب الناس بل وأكثرهم صلة، وحميمية مثل العشاق. نجد رجلا، وامرأة منخرطين في حالة من العناق بينما تحيط بهما قطعة من القماش لتمثل عائقا كبيرا يحجب عنهما الرؤية، والإحساس في نهاية المطاف. لا يملك كل منهما القدرة علي معرفة الآخر، ولا يمكنهما التواصل بسهولة، لتؤدي هذه الحالة المختلة إلي عدم إشباع الرغبات، ونقص الإدراك، وتشتت الأذهان. إن الرسالة الواضحة من اللوحة تتمثل في الحقيقة القاسية المتمثلة في عدم القدرة علي إدراك الآخر،

واحتضانه بالرغم من قربه، وصلته! فما بالك بالبعداء؟ .. يستخدم الإنسان الفن للتعبير عن الأزمة الوجودية، ويعمد إلي وسائله المختلفة، والمتعددة، والتي تتيح له الإفصاح عن مشاعره، ومخاوفه، وصراعاته الدفينة. ويتحرك الكائن البشري عبر المساحات المختلفة للفنون بحرية تامة، وبسعادة بالغة حتي ولو كان يستخدمها للتعبير عن المآسي، والأوجاع، والاضطرابات. ويمثل الخوف من المستقبل، والتعامل مع غموضه أمرا محوريا في الكثير من الأعمال الفنية، وغالباً ما ترتبط هذه البيئة بالمخاوف الوجودية المتأصلة، والذكريات المؤثرة من الماضي، والمسيطرة علي كيان الإنسان، والتي لا تسمح له في نفس الوقت أن يفلت منها أو يعرض عن استدعائها. ولا يرتبط التعبير عن الأزمة الوجودية، والصراعات المتعلقة بها باللوحات الفنية فحسب، لكنه يمتد ليشمل كافة أنواع الفنون من فيلم، ومسرح، ورواية، وشعر، ونثر، وغيرها من الفنون التي تعمل علي توثيق اللحظات المختلفة في حيوات البشر، وتسعي نحو التعبير عن مقاصدهم، وغاياتهم، ومخاوفهم العميقة. وربما لا تصل إلي حل واضح فيما يخص الصراع الوجودي، لكنها تسمح للإنسان بأن يعبر عن نفسه، ويخرج ما يكمن بداخله، وهو ما يقلل من وطأة الأزمة الوجودية المتأصلة، والقلق، والفزع المرتبطين بها، والملازمين لطبيعتها. في كتابها "الجنس الآخر"، تناقش سيمون دي بوفوار حقيقة التعامل مع

المرأة علي مدار التاريخ، وتعمد إلي الأفكار القابعة خلف ظهور مصطلح الجنس الآخر، وتظهر عبر كتابها أطيافا من "الوجودية النسوية"، والتي تتضح من خلال عرضها لتجربتها، ومنظورها الشخصي، وأفكارها الذاتية. تعمل الوجودية علي الاهتمام بتجربة الشخص الذاتية، وأفكاره الخاصة، ومنظوره الذي يعتمده في التعامل مع الأمور، وتعمد النسوية إلي العمل علي تحقيق المساواة بين المرأة، والرجل، وتحرص علي إدراكها لحقوقها السياسية، والاجتماعية، والثقافية المختلفة. ومعتمدة علي الذات النسوية وإحساسها بنفسها وسعيها نحو فهم وجودها وإدراكها له، تظهر الوجودية النسوية لتمثل جزءا رئيسيا من الصراع الوجودي المرتبط بالمرأة علي وجه الخصوص. تعمد النسوية إلي مجموعة مختلفة من النظريات الاجتماعية، والحركات السياسية، والفلسفات الأخلاقية التي تحركها دوافع متعلقة بقضايا المرأة. وتعبر الحركات النسوية عن حالة الصراع التي تعيشها المرأة، والتي لا تقتصر علي التجربة الوجودية الشاملة فحسب لكنها تمتد لتضرب بجذورها إلي التجربة الجزئية المرتبطة بالواقع، والحياة العملية. ومن الممكن أن نجد بسهولة عددا كبيرا من الرجال المناهضين لتحركات النسوة واصفين إياهن بالساعيات نحو جذب الانتباه، وقد يعمدون إلي اتهامهن بالإحساس بالدونية النابعة من أعماقهن، وغير الموجودة علي أرض الواقع في الممارسات العملية. وفي

نفس الوقت، من الممكن أن نجد دعما صريحا من قبل آخرين لمواقف النسوة، وحرصا كبيرا منهم علي إدراك المرأة لكافة حقوقها لكونها جزء رئيسي من أجزاء المجتمع، والواقع. وبالرغم من حالات الدعم المستمرة، إلا إننا من الممكن أن نشهد الكثير من حالات التعدي علي حقوق النسوة، وهو ما يثير سخطا مجتمعيا كبيرا بين الحين، والآخر. لكن التحركات النسوية تشير بشكل واضح إلي صراع داخلي متمكن من المرأة، وتعبر عن أفكار موضحة لإحساسات دفينة، وصراعات عميقة مسيطرة عليها ومهيمنة علي وجودها. وهو ما يمثل الصراع الذاتي المرتبط بالأنثي بشكل خاص ضمن الإطار الشامل للتجربة الإنسانية. ومن خلال إحساسها بذاتها واهتمامها بعرض قضاياها، تبدأ المرأة في التعبير عن نفسها من منظورها الخاص، وتعمل علي عرض أفكارها، والمطالبة بحقوقها كاملة، وهو ما تثبته التجربة الواقعية التي نعيشها بصورة واضحة. ورجوعاً إلي عزلة الإنسان، وعندما يختلي بنفسه ويركن إلي ذاته، يراوده الكثير من التأملات، ومن ضمنها تأملاته في أبعاد الغريزة الجنسية، وهو ما يأخذ مستويات عديدة فيما يخص الاهتمام، والتحليل. فمن الممكن للكائن البشري أن يمجد من طبيعة النشاط الجنسي، وأن يصفه بجوهر الوجود، ومن الممكن له أن يتحدث باستمرار عن الجنس، ويعبر عن أهميته بصورة دائمة، وحماسية. وقد نرصد سلوكا مشابها من

قبل الكثير من العلماء، والمفكرين، وعلي رأسهم فرويد. وقد ينظر آخرون إلي الجنس علي أنه نشاط طبيعي لا يستحق كل هذه الكلمات، ولا يمثل سوي أمر تقليدي، وعادي ضمن الإطار النمطي للحياة البشرية، وهو ما يمثل رأيا متأصلا عند الكثيرين. وربما يُعامل بنظرة مُجردة تامة ضمن إطار غير تقليدي مثلما ينظر إليه جان بول سارتر الذي يخبرنا بتفضيله لممارسة الاستمناء دون الاهتمام بالفعل الجنسي نفسه، وبأنه يري أن السلوك الجنسي يسلبه إيجابيته، ويفقده فكره النشط، ويؤثر علي درجة تحكمه بعقله، ويمثل أمرا سلبيا بالنسبة إليه. وهو ما يمثل فكرا غريبا، تمكنا من التعرف عليه عبر إحدى كتابات زوجته سيمون دي بوفوار. يصف سارتر في كتابه "الوجود والعدم"، المهتم بالبحث في الأنطولوجيا الفينومينولوجية، العضو الأنثوي بالفم الشره القادر علي التهام القضيب، وهو ما يجلب إليه فكرة البتر التي يخشاها، ويهابها. كما ينظر إلي الفعل الجنسي علي أنه حالة من اختفاء القضيب عبر ولوجه إلي مكان مُجوف، وصغير. ويري أن الدخول في علاقة عاطفية أشبه بالموت، حيث يشعر المرء بأنه قد سُلب من ذاته، وحينها يشمله الاضطراب بصورة دائمة، وهو ما يتجسد عبر المشاعر المتوترة، والممارسات الجنسية المتعلقة بها. كما يري أن الإنسان يتحول إلي مجرد جسد لاهث بمجرد انتهائه من الذروة الجنسية، وهو ما يمثل تناقضا كبيرا بالنسبة إليه. يري ليو بيرساني أنه من

الممكن أن ننظر إلي الجنس علي أنه حالة من التأرجح بين الشعور المبالغ فيه بالذات من جهة، والإحساس بفقدان الوعي، وتجاوز النفس من جهة أخري. ويري البعض أن الغريزة الجنسية وسيلة للتعويض أو الإحساس السريع بالنشوة، وأن الممارسات الجنسية المبالغ فيها ترتبط غالبا بحالات الفقدان، والضياع التي يشعر بها الفرد بل من الممكن أن نري العاطلين عن العمل ، علي سبيل المثال، في حالة من الاهتمام الدائم، والزائد بالجنس. لكنني في حقيقة الأمر أربط الأمر برمته في هذه الحالة بالطابع التخديري الذي تحدثنا عنه مُسبقاً، وأوصله بمحاولة التخلص من حيثيات الصراع بأي وسيلة ممكنة، حيث يري بعض المفكرين أن النشاط الجنسي يشعر الكائن البشري بوجوده، ويضخ الدماء في عروقه، ويحثه علي التحرك إلي الأمام، ويخرجه من صراعات وجوده، وحيثيات أزمته، وهو ما تثبته الحياة الواقعية التي تخبرنا باستخدام الكثيرين للجنس كمهرب من مشاكلهم، وصراعاتهم. بالطبع، تنبع هذه الآراء المختلفة حول الجنس بشكل مباشر من التجربة الذاتية، ولا ينبغي أن نعاملها معاملة الحقائق أو نربطها بالواقع العام؛ لأنها في النهاية تمثل المنظور البشري بألوانه، وأطيافه المتعددة. ورجوعاً إلي موضوع "الموت"، فقد تحدثت مسبقاً عن خوف الكيان البشري منه، وحقيقة أنه يمثل الأمر الأكثر تأثيرا حينما نتأمل معاً سياق المخاوف البشرية، والتأثيرات المرتبطة

بها. لكنني أرغب في التحدث عن الأمر ضمن سياق واقعي آخر. فمن الممكن للإنسان أن يتلذذ بتعذيب نفسه، ويتمني زوال كيانه، ويعمد إلي الحزن، والاكتئاب، وتآكل النفس، والعدوان علي الآخرين، وإيذائهم بدلاً من توجيه طاقاته السلبية إلي سياق مثمر، ومفيد، وتتدرج هذه الحالات بصورة مطاطية بين البشر لتصل بالكثير منهم إلي بيئة من المرض النفسي المستعصي. إن الموت غريزة بالنسبة لفرويد، حيث يري أن الإنسان يمتلك رغبة متأصلة تجاه الهلاك، والفناء، وأنه يسعي تجاه فنائه حينما تواجهه المشاكل، وتحيط به الصراعات. وبالرغم من ذلك، يختلف الكثير من العلماء مع الرجل حيال الأمر مؤكدين علي عدم وجود دليل واضح، وقادر علي إثبات امتلاك البشر أجمعين لهذه الرغبة أو الغريزة، والتي تُعرف بالمورتيدو. لكننا من الممكن أن نرصد حالات مختلفة من البشر فيما يخص التعامل مع المشاكل، والصراعات. فمنهم من يعمد إلي وصفها بشكل انخراطي مبالغ فيه، ومتفق مع فكر فرويد، حيث يتلذذ المرء حينها بعرضه لمشكلاته، وتحليله لها، وتحفز عنده هذه الحالة لذة من نوع ما، ومنهم من يضعها في سياق كوميدي أو ساخر محاولا التخفيف من وطأة الصراع، والتقليل من اضطراباته، وقد نجد بعضهم منخرطا في ممارسة أنشطة الترفيه المختلفة أو الاستماع إلي الموسيقي أو مشاهدة الأفلام أو قراءة الروايات كنوع من الهروب، وكمحاولة للتقليل من

الأفكار السلبية، وتأثيراتها، وهو ما يتماشي مع الأغلبية العظمي من البشر. وقد تقف الليبيدو (إيروس) كعائق واضح أمام المورتيدو (ثاناتوس)؛ لتقلل من تأثيراته، ولتعمل علي إدراج البشر في حالة من الحراك، والتفاعل، وهو ما يمثل الواقع الملموس بالنسبة للإنسان التقليدي أو المعياري. يري إيريك بيرن أن المورتيدو يمثل الطاقة المحفزة للكيان البشري للتحرك تجاه ممارسات الكره، والحقد، والنزاع، والغضب، والكراهية الاجتماعية. كما يؤكد علي أن التأثير الداخلي لهذه الطاقة يؤدي إلي الإحساس بالذنب، وتأنيب الضمير، والاكتئاب، والسوداوية، والميلانخوليا. ربط الرجل بين المورتيدو، والممارسات الجنسية، حيث أكد أنها تتجلي عبر الجنس من خلال السياق السادي المازوخي، والذي يعمد إلي التدمير العاطفي والذاتي، وهو ما يندرج تحت الإطار غير التقليدي بكل تأكيد. قد تساهم طاقة المورتيدو في زيادة التوترات الإنسانية لتتواصل مع صراعات الأزمة الوجودية، ولتخلق حالة من الاضطراب المُضاعف بصورة متأصلة، لكنها قد تؤدي إلي حالة من التخفيف أو درجات من اللذة بصورة غير مباشرة ضمن إطار غامض ينقصه المزيد من الأبحاث. ومن الممكن للأفكار السلبية أو الهدامة أو المرتبطة بالمورتيدو أن تجوب العقل البشري دون توقف، ومن الممكن لها أن تتكرر يومياً في فترات الفراغ، وهو ما يتفق مع تأكيدات

النفسيين علي ميل البشر العميق تجاه التكرار حتي لو كانت الأنشطة المُكررة مؤذية لهم، وحتي لو كانت الأفكار السلبية هدامة لأمزجتهم، وكياناتهم. ويمكننا أن نشير ببساطة إلي حقيقة أن طاقة الليبيدو تعمل علي درء طاقة المورتيدو، والتقليل من مساحتها بشكل مستمر ضمن إطار مبني علي الصراع والنزاع الدائم، وهو ما يمثل التجربة الوجودية بصراعاتها العديدة، ومساراتها المتعددة. من الممكن أن ننظر إلي الوجودية، وآرائها ضمن الإطار المبني علي دروس التنمية البشرية التي لا تؤدي إلي حلول واضحة أو مؤثرة، ومن الممكن أن نتأمل معاً "إرادة القوة" التي كثيراً ما تحدث عنها نيتشه، ونصل عبر تأملاتنا إلي حقيقة أن نيتشه نفسه لم يستمتع بإرادة القوة التي كثيراً ما سيطرت علي كتاباته، وأنه لم يسلم من ضربات القدر، ولم يتمكن من التحكم في مساراته، وتحقيق كافة اختياراته كما زعم. فالأمر كله يعود إلي الإله، وما نحن سوي أدوات من أدوات الخالق عز وجل. بالطبع تتوفر لنا بعض الاختيارات لكنها تقع ضمن النطاق المحدود، والذي يعرفه الإله كما يعرف كل شيء ضمن النطاق الواسع. وقد يعطينا الله عز وجل بعض الاختيارات لكنه يعلم اختياراتنا قبل أن نحددها، ويعلم تبعاتها، وغاياتها، ونهاياتها، وهو ما يؤدي بدوره إلي فكرة الحساب؛ فالله سريع الحساب، ومن خلاله يمكننا أن نخلق معني لحيواتنا، وغاية واضحة لها، ونتأكد من حقيقة أن كل شيء

خاضع لإرادة الإله، وقدره الحكيم. ومن الممكن للكائن البشري أن يشعر بأهميته حينما نعطيه مساحة كبيرة للتحدث عن نفسه، ومن الممكن أن تشمله حالة من الانتعاش عندما نصفق لإنجازاته الصغيرة أو المحدودة، وحينها يشعر بقيمته، ويحس بكونه عامل فعال ضمن الإطار العام للبيئة الوجودية. وربما تمثل هذه الحالة وهما من نوع ما لكنها في النهاية تعطيه نوعا من التنفيس، وتمنحه مساحة من التعبير، والشعور بالقيمة. فلولا الوهم لصارت الحياة قطعة من الجحيم، وهو ما يمثل إحدى المقولات الرائجة برواية "عراقي في باريس". يعتقد الإنسان أنه من الممكن أن يغير من طبيعة الأمور المحيطة به من خلال عرضه لآرائه، والتعبير عنها لكنه واهم في حقيقة الأمر. ولا يمثل كلامي نوعا من السلبية، ولا يشير بالضرورة إلي حالة من اليأس لكنه توثيق صريح للواقع، وتعبير حقيقي عن الأمور بموضوعية. ومن الممكن أن تلعب آراء الكائن البشري دورا ما في تحقيق بعض التغييرات المجتمعية في المجتمعات التي تسمح بحرية الرأي، والتعبير عن النفس، وعرض الأفكار الذاتية لكنها تغييرات طفيفة، وعاجزة عن التأثير بالبيئة الوجودية الشاملة. وإذا تطرقنا إلي الأمر من زاوية أخري، فمن الممكن أن نرصد الكثير من الحالات التي اقتادها القدر بسهولة ويسر إلي مصائرها الحتمية بالرغم من محاولاتها المتمردة الساعية نحو خلق مسارات خاصة،

ومختلفة. وعندما نتحدث عن التحليل النفسي الذاتي الخاص بالفرد وإدراكه لكيانه، فلابد أن نشير إلي احتمالية انشغاله بذاته ضمن إطار مبالغ فيه لكنه في هذه الحالة يندرج تحت بند الفشل التطبيقي وفقاً لإيريك فروم، وقد يصبح نوعا من شعائر التطهر كوسيلة لتحرير الذات من الأنانية، والغرور، وفي هذه الحالة نكون قد نجحنا في تطبيقه بالصورة الصحيحة، والفعالة. يصل المرء عبر التحليل الذاتي إلي نفسه، ويشعر بكيانه، ويحس بوجوده، ويهتم بجوهره، ويتخلص من منظوره السطحي ليري ذاته ضمن إطار أعمق، وأكثر وضوحا. قد تؤدي هذه التحليلات إلي مشاكل القيمة، والمعني التي ترتبط بتحليل المرء لذاته، وفهمه لأهدافه، وإدراكه للأمور التي يجب أن يحققها عبر حياته، وهو ما يخلق عنده قدرا كبيرا من الضغوط، والمسئوليات خاصةً في عصرنا الحالي. لكن التحليل الذاتي يرفع من قدرة المرء علي تحليل الأمور بشكل عام، ولا يقتصر علي إدراك الفرد لذاته؛ لأن القدرة علي التحليل تتطور مع الوقت، وترتفع نغمتها لتساعد الشخص في محاولاته نحو تكوين شخصية عميقة، وفعالة، وقادرة علي تحليل كل شيء. وبالرغم من ذلك، يمكننا أن نؤكد علي أن علم النفس الحديث قد روج للاهتمام بالفردية؛ فالناس يفكرون بمشكلاتهم، ويتحدثون عن أدق تفاصيل حيواتهم، لكن الواقع يخبرنا أن كلامهم في الأغلب هو مجرد ثرثرة لا طائل منها، وأن أحاديثهم

مجرد كلمات مُفخمة عن أنفسهم، وعن الآخرين. ورجوعاً إلي الأمور المتعلقة بالموت، فمن الممكن أن نرصدها عبر التطرق إلي الطابع النكروفيلي عند البشر، وهو ما تمثله العاطفة الجياشة تجاه كل ما هو ميت، ويعبر عنه الشغف بتحويل الحي إلي ميت، وتدمير كل شيء من أجل التدمير، وتفكيك البنية الحية لأي كيان، حيث يري فروم أن النكروفيليا ظاهرة نفسية مرضية تظهر نتيجة النمو المُعرقل، والشلل النفسي، ويؤكد علي أن التدميرية ليست مساوية للبيوفيليا بل هي البديل منها كما يوضح أن النكروفيليا تتطور حينما يُعاق نمو البيوفيليا الممثلة لحب الحياة. وتمثل هذه الحالة حب التدمير من أجل التدمير، حيث يتلذذ المرء حينها، وتشمله النشوة، والانتعاش، وهو ما يشير إلي درجة التعقيد البشري، وغموض هذا الكائن الغريب، ونستنتج في نفس الوقت أن تطور الشخصية التدميرية يرتبط بالبيئة، والعوامل المتعلقة بها، والتي يمكنها أن تعيق البيوفيليا بسهولة ويسر، ولا تقتصر النزعة التدميرية عند الكائن البشري علي توجيهه لممارساته تجاه الآخرين، لكنها قد تشمله أيضاً ليدمر نفسه، وليصل بها إلي حالة من الرغبة في الموت، والتلاشي، وقد ترتبط هذه البيئة بالاكتئاب، والاضطراب، والصراع الداخلي، وتعمق الخلل النفسي. وقد تتطور هذه النزعة عند الجنود بسهولة؛ لأنها تتأصل بسرعة فائقة مع كثرة الحروب، والانخراط في الصراعات، والتعرض للعنف،

والعدوان، ولذلك من الممكن لنا بيسر أن ندرج أنواع الاحتلال المختلفة ضمن بيئة النزعة التدميرية عند الكائن البشري. في الحقيقة، تمثل النزعة التدميرية دليلا واضحا علي ضبابية التوجه الإنساني، وتعبر عن عدم قدرته علي إدراك غايته الأصلية، وعدم فهمه لطبيعة وجوده. تهدف أشكال العنف عند الحيوان إلي فرض السيطرة، وتحقيق السيادة، وإشباع الغرائز لكنها لا تهدف إلي التدمير المُمنهج، والمقصود أما الإنسان، فإنه الكائن الوحيد الذي يدمر من أجل التدمير، ويخرب من أجل التخريب، ويعمد إلي القتل، والعدوان، والدمار، والخراب، وهو ما يختفي تماماً في عالم الحيوان بل ويختفي أيضاً في أغلب الحضارات البدائية. وتوضح كلماتنا السابقة أن النزعة التدميرية تتطور مع الوقت لتصبح متأصلة عند الكائن البشري، ولتتجلي صورها كلما تقدم، وهو ما يحذر من وصول البشرية إلي كارثة محققة إذا لم تجد حلولا واضحة لمشاكل العنف، والتدمير المنتشرة في الأرجاء. ومن الضروري أن تبدأ المجتمعات بالفرد، ونشأته، وتعمل علي تطويره، والاهتمام بإرشاده إلي الطريق القويم. وهو ما يمثل أمرا صعبا، ومجهدا لكنه في نفس الوقت ضروري، وحيوي للتقليل من وطأة النزعة التدميرية عند البشر، والتي تتطور بسرعة فائقة لتؤثر علي الفرد، ولتدفعه إلي التلذذ بتعذيب نفسه، وإذلال غيره. في روايته الشهيرة "في قبوي"، يعبر دوستويفكسي عن التخبطات النفسية، والصراعات

الداخلية، والتوترات البشرية عبر عرضه للشخصية الرئيسية بالحبكة، والتي تظهر ضمن إطار سوداوي مُفعم بالمعاناة، والإرهاق. في هذه الرواية، يصف الرجل العوالم الداخلية لإنسان لا يجد لنفسه موقعا في كنف المجتمع[1] ومن ثم يأخذ في صب غضبه، وحقده، ومخاوفه علي الجميع لينخرط في حالة من الوصف العميق، والتي تبدي اهتماما كبيرا بكل تفاصيل حياته، وكافة أبعاد تجربته الذاتية. ترصد الرواية صراعا وجوديا متأصلا عند البطل، وتعمل علي التطرق إلي الكثير من الموضوعات المتمثلة في العزلة، والصراعات النفسية، والاضطرابات المهيمنة علي البشر، ومحاولاتهم التكيف مع المجتمع. ويعدها الكثيرون واحدة من أهم الروايات الوجودية علي الإطلاق؛ لأنها تعمد إلي الوصف الدقيق لتفاصيل التجربة الوجودية المتعلقة بالشخصية الرئيسية، وهو ما يمثل رصدا دقيقا للحياة البشرية، وصراعاتها المتعددة. نجد اهتماما كبيرا بالذات الإنسانية، وحرصا عظيما علي الإلمام بأمورها، والإفصاح عن كل ما يكمن بداخلها، وفي نفس الوقت، نرصد سعيا واضحا من فيودور تجاه التعرض إلي عزلة البطل، وإصراره علي ذلك، وتفضيله للانعزالية علي كل شيء، وهو ما يثير فضول القارئ، ويحرك دواخله بصورة مباشرة. ومن الممكن لبعض القراء أن يشملهم الاهتمام بالحبكة، والحرص علي متابعة كلمات الشخصية الرئيسية، ووصفها الدقيق للأحداث،

والدواخل، ومن الممكن لقراء آخرين أن تحيط بهم حالة من اللامبالاة تجاه الرواية بسهولة، وأن يصنفوا كلمات الرجل كمجرد ثرثرة لا فائدة منها. وبالرغم من ذلك، لا يمكننا أن ننكر تأثير الرواية علي الكثيرين، وحيازتها للعديد من المحبين، والمعجبين. ورجوعاً إلي منظومة الأهداف الوجودية الخاصة بالكيان الإنساني، ففي كتاب "تشريح الغريزة"، تحدثت عن فكرة أن الهدف الصريح من الوجود البشري يكمن في التكاثر، والتناسل، وربما يتهمني البعض بعدم موضوعيتي في هذه الحالة، لكنني أرغب في أن أدعم وجهة نظري عبر التعرض إلي بعض النقاط الهامة، والتي ترتبط بالفكرة موضع النقاش، حيث يمثل التكاثر عملية مثمرة ومستمرة لا تعرف التوقف، ولا يقف في طريقها مانع، وعندما نتأمل ثناياها، ونتطرق إلي أبعادها، نجد أنها شاملة وعامة؛ لأنها لا تقتصر علي الكائن البشري فحسب لكنها تمتد لتشمل كافة الكائنات الموجودة علي سطح الأرض. ومن الممكن أن نتأمل السلوك الإنساني نفسه، والذي يعمد إلي الإكثار من كل شيء، ويعمل علي تصنيع مليارات العبوات من اللبن، والدواء، والطعام كل يوم لتصل إلي مليارات البشر، ولتخضع لمنظومة الكثرة والتكرار. وهو ما يؤكد حقيقة أن التكاثر، والتوسع، والانتشار أهداف أساسية ضمن منظومة الوجود البشري؛ لأنها تشعر الكيان البشري بوجوده، وتمنحه بعض الطمأنينة، والأمان. وبالرغم من

ذلك، لا يمكننا أن ننكر حقيقة الفناء، والتي من شأنها أن تشمل الكيان البشري بصورة حتمية، وعامة يوماً ما، وهو ما يثير فضول الكثير من المفكرين، والعلماء، وربما نجد صناع السينما ، علي سبيل المثال، منخرطين في حالة من الاهتمام بتقديم الأفلام الراصدة لفكرة التلاشي، والتعامل مع الكون، والفضاء، وهو ما يؤكد فضول الكائن البشري تجاه مصيره المجهول، وتلاشيه المحتوم. وعلي المستوي الديني، نجد أننا قد خُلقنا للتكاثر، والعبادة، والعمل كجزء من العبادة، وهو ما يمثل المنظومة الصحيحة، والصحية للإنسان. ولن تمنحه هذه المنظومة طريقا سهلا، لكنها ستضعه علي الطريق السوي، والآمن حتي يصل إلي البر الآخر.

يحاول المرء أن يستحضر أجواء الحب، والطمأنينة، ويعمل علي طمأنة من حوله خاصةً الأطفال محاولا أن يمنح نفسه الثقة، والإحساس بالسيطرة، والأمان، لكنه في نفس الوقت ساذج، وواهم؛ لأن الضعف الوجودي يشمله كما يشمل الأطفال، ويتسلل إلي قلبه كما يتسلل إلي قلوب الشيوخ، والعجائز. إن هذا الضعف متأصل في مختلف ظروف الإنسان، وفي كافة أحواله؛ لأنه علي دراية بالأخطار الكثيرة التي تهدده، ومن بينها الموت، وغموض مستقبله، ومعرفته المحدودة. يلجأ الكائن البشري إلي الانخراط في الكثير من العلاقات الاجتماعية محاولا الحصول علي أكبر درجة ممكنة من الطمأنينة، والأمان لكنه في نفس الوقت كثيراً ما يجد نفسه

مشتتا، وراغبا في العزلة، والانفراد بالنفس، ومن المُؤكد أن كل هذه المحاولات الجاهدة، والمساعي الواعدة لا يمكنها أن تمحو حقيقته المتأصلة، والتي تؤكد علي كينونته العارضة ضمن هذا الكون الواسع. وبالرغم من ذلك، يبقي الحراك الإنساني هاما بالنسبة إليه ضمن المنظور الذاتي؛ لأنه من خلاله ينجح في الشعور بوجوده، والتحقق من كيانه. ولكن كيف يتعامل العقل البشري مع صراعات الوجود؟ وكيف يتأقلم مع التغيرات الطارئة علي حياة الإنسان؟ .. في الحقيقة يتماشي العقل الواعي مع المسار الإنساني بشكل سلس، لكنه عندما يتعرض إلي حدث طارئ أو تغير جديد، من الممكن أن يعمد إلي التجاهل بصورة مباشرة. وفي هذه الحالة، قد يؤدي التجاهل اللحظي إلي إغراق الفرد في حالة من الكآبة، إذا توافق الأمر مع تحول غير سار في مسار الكيان البشري، وهو ما يدفعه إلي تجاهل التغير وقت حدوثه لكنه سريعاً ما يعود إليه من جديد حينما يبدأ في مراجعة نفسه، والبحث عن سبب مقنع لتعاسته. وعندما يري المرء بوضوح ما يشعر به، يبدأ في اتخاذ الإجراءات اللازمة، وحينها يتأقلم مع البيئة الجديدة، ويبدأ في التعامل معها ضمن إطار مبني علي الألم أو الصراع لكنه بعيد عن الكآبة أو الاكتئاب. وقد يأخذ الصراع شكلا من أشكال الوسواس القهري، والذي يعتمده العقل الواعي كوسيلة للتخفيف من وطأة الصراعات العميقة أو الكامنة في العقل اللاواعي.

فمن الممكن لفرد مُفعم بالمخاوف الكبرى أن يسعي نحو كبتها في عقله الواعي، واستبدالها بمخاوف صغري، وهو ما يعطيه إحساسا بالارتياح وقتها لكن الإجراء نفسه بعيد كل البعد عن الراحة. فعندما يخبر الطبيب أحد المرضي باحتمالية إصابته بمرض خطير بعد فترة غير مُحددة، نجد المريض في حالة من الذعر الدائم، والخوف المستمر من احتمالية إصابته بالمرض، وهو ما يدفعه نحو كبت أفكاره المتشائمة، والتي تؤرقه باستمرار في عقله الواعي ليشعر ببعض اللحظات من الارتياح، والراحة، لكنه في نفس الوقت يجد نفسه عبدا للوساوس القهرية، والتي تعمل علي توجيه مخاوفه بعيدا عنه عبر تجميعها نحو الأمور الصغيرة. وفي هذه الحالة، نجده مُفعما بالذعر، والخوف من أمور صغيرة أو تافهة. فعندما يغادر المنزل يشعر أنه قد نسي إطفاء الفرن أو إغلاق الباب، علي سبيل المثال، وهو ما يؤكده الكثير من تحليلات فروم. ومن الممكن للعقل البشري أن يعمد إلي منهج موازي للسياق الذي سبق وتحدثنا عنه فيما يخص الأزمة الوجودية والصراعات المتعلقة بها. وفي هذه الحالة، يكبت العقل الأفكار العديدة المتعلقة بقيمة الفرد، وحجم إنجازاته، ومدي تأثيره، ومعني حياته ساعيا نحو الحصول علي لحظات من السكون، وفترات من الارتياح.

وبنفس الهيئة السابقة، يقع الكائن البشري فريسة للوساوس القهرية التي تعمل علي توجيه المخاوف، والأفكار المكبوتة تجاه أمور أخري أقل قيمة، وأضعف تأثيرا، لكن في نفس الوقت يجد نفسه بعيداً عن التفكير بالمشاكل الكبرى لفترة من الزمن، وهو ما يمثل ميزة إيجابية إلي حد ما. وبصورة واقعية، تمر الحياة بالإنسان بينما يخطط لها، ويجد نفسه منخرطا في حالة من التنظيم، والتخطيط، ومنهمكا في الإعداد للكثير من الأمور القادمة دون الاستمتاع باللحظات الراهنة. فهل تنتج هذه البيئة من توجه سلوكي يرتبط بالفرد نفسه؟ أم يمثل الأمر برمته طبيعة العقل البشري، وهيئته؟ .. في الحقيقة، تفرض المجتمعات الحديثة علي الإنسان الاندماج مع بيئة من التنظيم، والتخطيط الدقيقين، وتعمل علي تقديم العديد من القوالب الجاهزة، والتي من شأنها أن تُطبق علي الجميع، وهو ما يمثل وهما كبيرا بطبيعة الحال. كما تعمد إلي خلق الكثير من التوقعات العالية عند الفرد، لتخلق في نهاية المطاف فاصلا واضحا بين الواقع، والتصورات المُعتمدة من قبل العقل البشري. في هذه الحالة، نجد الفرد منشغلا بحجم إنجازاته، وإنجازات غيره، ويعمد إلي المقارنة بشكل مستمر معتقدا أنه قد خُلق ضمن بيئة مبينة علي التنافسية الأبدية التي لا تعرف سكونا أو هدوءا، وهو ما يؤدي بدوره إلي خلق الكثير من الصراعات الداخلية، والضغوط النفسية. ومن الممكن لنا بسهولة أن

نشهد حالة من التأصل فيما يخص الأزمة الوجودية في عصرنا الحالي مقارنةً بالعصور السابقة. ومع التنافسية الزائدة، يتلاعب العقل البشري بنفسه ليطرح الكثير من الأسئلة الوجودية المتكررة، والتي تهتم بقيمة الكائن البشري، وأهميته، وحجم إنجازاته.

انتهي

اللذة الغامضة للاشيء .. معتز عرفان

دار عرفان للنشر .. مؤسسة عرفان للثقافة والفنون